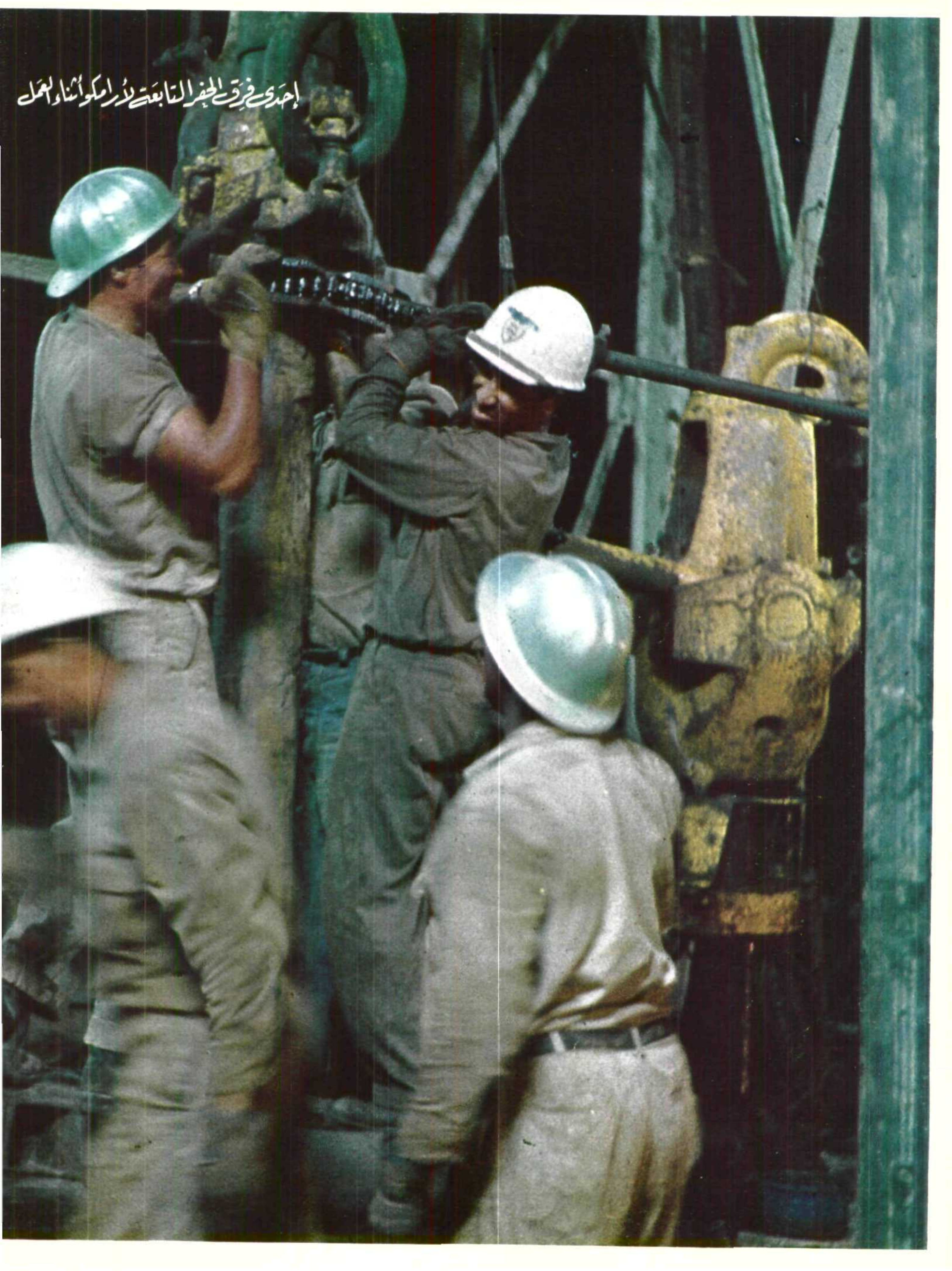
قافلة الزيت

جمادى الاولى ١٣٩٠ - يوليه/أغسطس ١٩٧٠





إحدى فِرَق الحفر التابعة لأُرامكو أثناء العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الخامس المجلد الثامن عشر

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة
توزع مجاناً

العنوان صندوق البريد رقم ١٣٨٩ الظهران - المملكة العربية السعودية

المدير العام: مصطفى حسن الخان المدير المسؤول: علي حسن قبنادي لي
رئيس التحرير: منصور مدني المحرر المساعد: عوني ابو كشك

التعليق على صورة الغلاف

تتعرض آبار الزيت في المملكة العربية السعودية الى صيانة دورية حرصاً على مستوى الضغط فيها . (راجع المقال)
تصوير : شيخ أمين

AL-MUTAWA PRESS CO. DAMMAM, SAUDI ARABIA

محتويات العدد

آداب

علوم

إستطلاعات

المَدِيح في الشِّعْر العَرَبيّ

بقلم الاستاذ أحمد الجندي

امتاز الشعر العربي بكثرة فنونه وتعدد ألوانه واختلاف أبوابه فهو يشبه ما عند الأمم الأخرى في أشياء ويختص بأشياء أخرى تجعله مفرداً فيها .

ومن الأبواب التي امتاز بها الشعر العربي : المديح ، فهو فن ارتفع شأنه بين العرب وعلا قدره حتى كاد أن يكون الميدان الأوحد لبعض الشعراء ، والمجال الفرد لعدد من أصحاب فن القصيد . وهذا لا يمنع أن يكون هذا اللون قد عرف عند بعض الأمم ولكنه كان عندها لوناً يضاف الى ألوان أخرى من الشعر .

ان طبيعة الحياة البدوية عند العرب أوجدت هذا الفن الشعري . فالحياة الاقتصادية البسيطة ، والحالة الاجتماعية الساذجة وقلة العمل عند قوم لا يعرفون في الغالب الا تربية الماشية والتنقل من مكان الى آخر في هذه البادية الشاسعة يترحلون وراء الغمام ويسيرون خلف المطر ليصلوا الى المراعي ، التي هي غذاء انعامهم ومعاش ماشيتهم .. هذه الحياة المتقشفة هي التي ساعدت ، ولا شك على تكون الفن الشعري عند العرب ، وهي التي حددت أنواعه وعينت أشكاله .

كانت البطالة شبه عامة ، وهذا ما أدّى الى وجود الفقر الذي غمر الجزيرة العربية ، الا بعض الأسر والأفراد ممن كانوا يعملون في التجارة .. يذهبون بها الى اليمن جنوباً ، أو الى الشام شمالا . وما كان هؤلاء التجار الا عدداً قليلا من الناس بحيث لا يمكن أن تعتبر التجارة لوناً من ألوان الحياة الاجتماعية السائدة عند العرب قبل الاسلام .

وهذه الحياة اليسيرة غير المعقدة قد أوجدت طبقة من أصحاب الفن الشعري لا تعمل ، وترى في فنها ميزة لها على غيرها ، كما ترى فيه عملا أو وظيفة تؤديها لمجتمعها . ولقد اعترف المجتمع للشاعر بهذه الميزة ، فأصبح يعتز بها . وأصبح الشاعر موضع تبجيل واكرام ، حتى كانت القبيلة تحزن ان خلت من شاعر ، وتفرح اذا نبغ فيها أحد الموهوبين من الشعراء .

وبطبيعة الحياة الشعرية عند الشعراء أخذ هؤلاء يتغزلون ويصفون ويرثون .. يتغزلون حين يلفتهم الجمال اليه ، ويصفون حين تأخذ أبصارهم مفاتن الصحراء ومحاسنها ، ويرثون حين يفتقدون عزيزاً أو يفارقون حبيباً أو قريباً .

ولكنهم كانوا يحتاجون الى وسائل الحياة ، ولم تكن لهم حيلة في توفيرها الا الذهاب الى الأغنياء من الأمراء والوجهاء والأعيان والتجار يذكرون آلاءهم ويعددون مآثرهم ، ويسجلون أعمالهم ، ويثيرون فيهم دافع الكرم ، حتى ينالوا منهم ما يصبون اليه من مال ، قد يكثر وقد يقل ، ولكنه يكفيهم مؤونة العيش ، ليفرغوا الى الحياة الفنية كاملة غير منقوصة ، من لهو وعبث وغناء .

وبعد ، فما هو المديح ؟ لقد قال فيه أصحاب النقد أنه ذكر محاسن الممدوح ، وتعداد مناقبه وميزاته . وقد اختلفت هذه الغاية مع اختلاف العصور . ففي عهد الجاهلية كان المديح لوناً من الوصف الذي تذكر فيه المحاسن ، كما كان الهجاء نوعاً من الوصف الذي تعدد فيه المساوىء . وكان المدح والذم مبرأين من الاستجداء ، وطلب الرفد والعطاء ، اذ كانا فناً يقصد فيه الفن وحده . وقد كان المدح يتناول فرداً من الأفراد أو قبيلة من القبائل ، كما كان يتناول أحياناً الجزيرة بأسرها يصف عيشها ومفاخر أهلها ويجعل من سكانها العرب سادة الناس وعلية القوم .

والمدح في حقيقته ذكر للمحاسن ، ولكنه يتضمن وجوهاً أخرى من القول تدخل كلها في باب المديح ، وان حملت أسماء أخرى ، كالرثاء مثلا الذي هو تعداد مناقب الميت ، وذكر أعماله ومآثره ، ولكنه سمي رثاء لأنه قيل في ميت لا يرجى نواله ، وفي زائل لا يؤمل عطاؤه . والغزل أحياناً يتضمن المديح ، أليس المحبوب محلا لمديح المحب ، حين يشبهه بالقمر المنير والنهار المضيء ، وحين يشبه جبينه بالشمس ، وعينيه بعيني الغزال ؟ وشعر التهاني ، أليس نوعاً من المديح أيضاً ؟ اذن فالمدح لم يكن يستقل بموضوع واحد في أول أمره ، ولكن حدوده تعينت فيما بعد ، وبذلك أصبح مختصا بالوصف الموجه الى شخص يتضمن ذكر محاسنه الموروثة والمكتسبة لنيل العطاء وللفوز بالجوائز المالية وغيرها.

وذلك ما كان يفعله أبو تمام ، والبحتري ، وابن الرومي . وغيرهم من شعراء العباسيين ، وجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، ورصفاؤهم من شعراء الأمويين ، والنابغة ، وزهير ، والأعشى ، من شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات.

وقد اختلفت ألوان المديح بالنسبة للعصور الأدبية ، فالمديح في العصر الجاهلي كان طلباً للرفد ، ولكنه طلب يحمل الكثير من اعتبار الذات والشعور بالكرامة ، لأن المادح من الشعراء لم يكن ينحط الى درك الالحاف بالمطالبة بالمال ، ولم يكن يعمد الى فضح نفسه باعلان فقره واحتياجه ، ولم يكن ينزل بنفسه عن المستوى الرفيع ، بل كان يقصر قوله على ذكر محاسن الممدوح الذي يستحق المدح لأنه أمير نبيل ، أو سيد كريم ، ثم هو يشير أو لا يشير الى ما يمكن أن يحققه مديحه من جائزة يستعين بها على حياته .. كل ذلك بكلام بعيد عن المبالغة والشطط في اسباغ الأوصاف المكبرة على الممدوح .

وفي عصر الدولة الأموية ووجود الخلافة المروانية ، ذات الهيبة والسطوة ، أصبح المدح موجها الى الخليفة والعاملين معه . كما ان دخول الأمم المجاورة في ظل الاسلام وهي أمم مختلفة في طباعها وتقاليدها عن العرب ، أدخل شيئاً من التبدل على فن المديح ، فأخذ الشاعر يجد صعوبة في الحصول على عيشه عن طريق المدح الصادق ، مما اضطره الى زيادة المدح والمبالغة في

الأوصاف المستحسنة حتى ينال الجائزة التي يراها كفاء شعره .

وهكذا رأينا كلا من جرير والفرزدق والأخطل يعمد الى التمادي في المدح ، ويذهب الى المبالغة ذهاباً يبعد به عن الحقيقة والواقع ، وقد نعزو هذه المبالغة الى تغير العصر كما قلنا من جهة ، والى شدة التنافس بين الشعراء الثلاثة وأندادهم من الشعراء في الحصول على السبق واحتجان الجوائز والأعطيات من الممدوحين من جهة أخرى .

فاذا انتقلنا الى العصر العباسي رأينا أن المديح قد أصبح فنا مستقلا يختص به شاعر من الشعراء ، فيجعله شغله الشاغل ، بحيث لا يقول الشعر في باب من أبواب الشعر الا نادراً . ولو قرأت ديوان البحتري ، والمتنبي ، وأبي تمام ، ومسلم بن الوليد ، لهالك ما في هذه الدواوين من قصائد للمديح لا تحصى ، ولرأيت ان هذا المديح قد أصبح تكراراً لما سبقه من المدح عند الشاعر نفسه ، وكأن القصيدة هي نفس التي سبقتها بعد تغيير العنوان والقافية والوزن ، أما المعاني والأفكار والأخيلة فهي هي لا تتغير ولا تتبدل الا في القليل النادر . وقد تلتبس القصيدة الواحدة بين عدد من الشعراء ، وربما عزيت الى أكثر من شاعر مداح ، لتقارب أغراض المدح وتشابه مراميه . يضاف الى ذلك كله ان المدح في العصر العباسي قد دخلته أفكار جديدة طارئة من منطق وفلسفة وعلوم كما هي الحال في مديح أبي تمام والمتنبي وغيرهما .

فمديح زهير في البيتين التاليين اللذين قالهما في مدح حصن بن حذيفة بن بدر ، ما هو الا نموذج للمديح الجاهلي المعتدل البسيط :

وأبيض فياض يداه غمامة
على معتفيه ما تغب فواضله
تراه اذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

انه يصف كرمه وصفاً ولا يسأله عطاء أو رفداً ، ويقول ان كرمه منبعث من طبعه ، وان ماله لا يذهب الا بطريق العطاء ، وهو يتلذذ بالجود والكرم حتى يسر بمن يسأله حاجة ، وكأنه يعطيه هذه الحاجة بدلا من أن يطلبها منه . وهذا وصف رائع في صحته وواقعيته وصدقه وبعده عن المبالغة والزيف .

فاذا مررت بجرير رأيت عنده المبالغة في المديح ، بحيث يوحي اليك الشك في صدقه وسوء الظن في هدفه وطويته ثم تشعر بالذل في ذكر الجوع والسغب حتى يسف فيذكر زوجه وهي تعلل أولادها الصغار بما سيأتيها من عطاء الخليفة عبد الملك بن مروان ، وذلك حين يقول :

تعزت أم حزرة ثم قالت
رأيت الموردين ذوي لقاح
تعلل وهي ساغبة بنيها
بأنفاس من الشبم القراح
سأمتاح البحور فجنبيني
اذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريك
ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثني يا فداك أبي وأمي
بسيب منك انك ذو ارتياح
فاني قد رأيت علي حقا
زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر ان رددت علي ريشي
وأثبت القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا
واندى العالمين بطون راح ؟ !

ولقد وضح ان هذا المدح ، رغم طرافته كشعر رفيع الأسلوب أخاذ الصور وضاء اللمحات ، يدعو الى الحياء والخجل فكلمة « أغثني » وحدها تنزل بالشاعر من مكان الكرامة الى ذل السؤال . لا سيما حين يرى الشاعر نفسه مقيداً بواجب المديح الذي فرضه على نفسه فرضاً ، الى أن يصل الى هذه المبالغة التي لا يصدقها عقل القارىء وان أعجب بها احساسه الفني ، وذلك في قوله : الستم ... الخ .

فاذا وصلت الى العصر العباسي رأيت لوناً جديداً من المديح : رأيت البحتري يرفع عقيرته بالغناء ، ويجهر بالسؤال ، رغم ما اتهم به من قلة الاعتقاد بصدق ما يقول ، فقد مدح قوماً ذمهم فيما بعد ، ودس على جماعة أشبعهم فيما مضى مديحاً . وكذلك أبو تمام الذي كان أقرب الى الصدق في مديحه ولكنه كان يفصح عن طلب الأعطيات بل لقد كان يفخر بأن أعطيات الشعراء كانت كلها تجبى اليه . ومن نماذج المديح في شعر أبي تمام مدحه للخليفة المأمون ، حيث يقول :

الله أكبر جاء أكبر من جرت
فتعثرت في كنهه الأوهام
من شرد الاعدام عن أوطانه
بالبذل حتى استطرف الاعدام
وتكفل الأيتام عن آبائهم
حتى وددنا اننا أيتام

لقد أدخل أبو تمام الحذلقة العصرية في هذا المديح فرأينا لفظتي « الكنه » و « الأوهام » ، ورأينا كيف يود الشاعر أن يكون يتيماً حتى يستحق عطاء الكافل وفي هذا ذل لشاعر من فحول الشعراء كأبي تمام حتى لقد وصفه النقاد بأنه « مداحة نواحة » رغم ما عنده من شعر رائع وشاعرية خصبة .

أما في العصور التي تلت القرن الرابع للهجرة ، وهي عصور الدول المتتابعة وما سمي « بعصر الانحطاط » فقد حفل شعر المديح بأنواع من القول التقليدي ومن الصناعة اللفظية المستكرهة تحمل على الشعر حملا ، فتغير من حاله وتسيء اليه ، وبذلك أصبح المديح مجرد صناعة شعرية واستجداء .

وأضرب هنا مثلا على هذا النوع من المديح بأبيات من شعراء هذا الجيل لنرى الى أي درك وصل هذا الخيال الشعري من الاسفاف والغلو ، رغم ما فيه من صناعة شعرية .. فصفي الدين الحلي يصف الملك الناصر محمد بن قلاوون بقوله :

ملك اذا اكتحل الملوك بنوره
خروا لهيبته الى الأذقان

وهذا ابن القيسراني يقول في مدح عماد الدين الزنكي :

ان ساقني طلب الغنى أو شاقني
حب العلا فلقد وردت مواردي
ومتى عددت الى نداك وسائلي
أعددت قصدي من أجلّ مقاصدي
حتى أعود من امتداحك حاليا
وكأنني قلدت بعض قلائدي

وهذا الشرف الانصاري يقول في مدح الملك المنصور :

أنت المليك المنصور أشرف من
فاق البرايا عزا وتمكينا
يا ناصر الدين يا محمد ما
أولى بحمد من ينصر الدينا
تهنّ ما شئت من مدائحنا
كما لنا من نداك ماشينا

وهذا ابن عنين يمتدح الملك العادل فيقول :

نسخت خلائقه الحميدة ما أتى
في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
حلم تخف له الحلوم وراءه
عزم ورأي يحقر الاسكندرا
لا تسمعن حديث ملك غيره
يروى فكل الصيد في جوف الفرا

ان مثل هذه الأماديح المغالى فيها كل هذا الغلو ، والبعيدة كل البعد عن الحقيقة وعن الذوق الفني ليست سوى نظم لا طعم له ولا لون ولا رائحة . وهي قد تركت أثراً سيئاً لدى النقاد ، فأصبح المدح فناً مكروهاً ، وأصبح المادح محلا للوم والتقريع أحياناً ، وأصبحت كثرة المدح عيباً كبيراً عند الشاعر ، حتى لقد عيب ذلك على المتنبي والبحتري وكل الشعراء الذين تقدموا هذين الشاعرين الكبيرين ، بل لقد اشتط بعض الأدباء فاعتبروا هذا اللون الشعري عيباً ظاهراً من عيوب الشعر العربي .

ولا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان المدح قد أضر كثيراً في الشعر العربي مما حمل بعض الشعراء على تحديد موقف المادح من الممدوح ، وتعيين الحدود للقول في المدح بحيث ينبغي على الشاعر أن لا يشتط كثيراً في مدح الممدوح وكيل الصفات له كيلا يبعد بالشعر عن الحقيقة التي هي غاية كل قول .

ولقد أحس بعض الشعراء من ذوي الحس المرهف ان المدح صفة تنزل بصاحبها عن المستوى الرفيع وانه صفة تدعو الى الغضّ من كرامة الشعر والشاعر . وانظر الى رأي ابن الرومي في ذاته ، ورأيه في صفة المادح حين يقول لمحمد بن عبد الله بن طاهر الذي ظن انه يحسده على شعره :

أتحسدني تجويد ريط نسجته
لتلبسه يا للعجيب من الأمر
تذكر هداك الله اني مادح
وانك ممدوح فلا تعد بي قدري

وكأنه يعنّف نفسه ويضعها في مرتبة دون مرتبة ابن طاهر لأنه مادح ، وابن طاهر ممدوح ، والحقيقة ان ابن طاهر هذا قد حاول نظم الشعر فأخفق ، ورأى شعر ابن الرومي ، فخامره الحسد حتى قصر في عطائه غيرة وحسداً .

ولقد لقي ابن الرومي والمتنبي ألواناً كثيرة من الغضاضة والاساءة بسبب هذا المدح الذي عرضا ذاتيهما له . أما ابن الرومي فمعذور بعض الشيء نظراً الى فقره وفاقته ، بل ومرضه العصبي رغم شعره الذي عرف بالصدق ، وقد وصف علاقته مع ممدوحيه وصفاً يقطع القلب حزناً واشفاقاً . انه يمدح ليطلب ثوباً يلبسه بعد أن أعجزه تدارك الثوب ، ولكن الممدوح يمطله ، فيقول له حنقاً مغضباً :

جعلت فداك لم أسأل
ك ذاك الثوب للكفن
سألتكه لألبسه
و روحي بعد في البدن

وربما رد عليه المادحون شعره بعد أيام ليقولوا له بكل قسوة : خذ شعرك فامدح به غيرنا ، فيجيب ثائراً متألماً :

رددت علي مدحي بعد مطل
وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت امدح به من شئت غيري
ومن ذا يقبل المدح الرديدا

أما ما لقيه المتنبي في سبيل مدحه فقد كان أعجب وأخطر . لقد كان امتناعه عن المدح أحياناً باعثاً للتآمر عليه ، كما كان سبب قتله في نهاية المطاف ، على بعض الروايات . ففقدت به اللغة العربية شاعراً كبيراً ، وحكيماً فذاً . ولقد كان المتنبي يحترم نفسه ، ولكنه كان اذا رأى المال يعمد الى المدح لينال به عظيم الرفد ، فاذا سئل في ذلك أجاب اجابة المحزون المتألم في ذاته ، واعتذر بأنه محتاج للمال ثم يخترع حكاية بائع البطيخ الذي لم يبعه البطيخ لوضاعته وباع الوجيه الذي جاءه بثمن أقل .

ولكنه كان يعرف انه يقلل من شأنه وعزة نفسه في المديح ، فكانت هذه الفكرة تراوده ، فاذا تملكت منه أبى المديح ، واستعصى عليه القول في الممدوحين ، مهما علت أقدارهم لذلك أبى أن يمدح الصاحب ابن عباد ، والحاتمي ، وابن كيغلغ ، فأثار أولئك الشعراء عليه فشتموه وهجوه ، وحاولوا قتله فيما نقله المؤرخون .

وقد برر مديحه لكافور بطلب الملك ، وان ما مدحه به قد كان في سبيل الحصول

على الولاية :

اذا لم تهب لي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني ومدحك يسلب

ثم قال في موضع آخر :

وغير كثير أن يزورك راجل
فيرجع ملكاً للعراقين واليا

ولكن هذا لا يعفي المتنبي من العقاب الأدبي في رأي النقاد ، فكان عليه أن يربأ بنفسه أن تسام القول الذي لا يناسبه ، وكان من واجبه أن يجعل ذاته في معزل عن المساومات والمحاولات . على انه كان الشاعر الأوحد الذي سعى اليه الممدوحون ، ولم يسع اليهم . وكان الفنان الفرد الذي وضع الشروط لمدائحه ولطريقة انشاده بحضرة الممدوحين ، كما صنع مع سيف الدولة .

ولكن المدح رغم كل ما تقدم من صفات تبعث على النفور فانه في حد ذاته فن أصيل . فالمدح في حقيقته المثلى ليس ذكراً للصفات الحسنة يضعها المادح على هواه ليكيلها للممدوحين . ليس هذا هو المدح ، وانما قد يكون كلاماً صادقا فيه هوى وفيه صداقة وفيه وفاء ، وقد يخلص انسان الحب لانسان يعزه فيمدحه ذاكراً صفاته التي أعجبته . والشاعر الصحيح لا يستطيع السكوت ازاء ما يعجبه من مناظر وصفات وهكذا أحب المتنبي سيف الدولة فمدحه شاكراً ، ومدحه صادقاً ، ومدحه وفياً ، فيقول له معاتباً في اخر قصائده الحلبيات :

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم
مالي أكتّم حباً قد برى جسدي
وتدّعي حب سيف الدولة الأمم

انه يحب ممدوحه ، وهذا ما لم يقله الشعراء المادحون المأجورون وهو يمدحه لأنه يحبه ، وقد يغار من أولئك الذين يدّعون حب سيف الدولة ادعاء غير صادق . ثم يلتفت اليه معاتباً اياه عتاب الصديق الجريح ، فيقول :

يا أعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
ان المعارف في أهل النهى ذمم

فاذا اضطر الى ترك حلب ، واللجوء الى كافور في مصر مدح كافوراً ، ولكنه مدح مبطن يضمر فيه الكثير مما لا يستطيع اظهاره من سخر وضحك مؤلمين . ومن ينظر الى شروح ابن جني لأقوال المتنبي يتضح لعينيه هذا الذي نقوله فان المتنبي لم يمدح كافوراً مدحاً صادقاً أبداً ، بل كان في مديحه يحاول استغلاله والوصول الى ما يريد ، وهو في كل ما مدحه لم ينس أبداً سيف الدولة الذي خذله وخان عهده وأطاع حساده وشانئيه ، حتى لجأ الى من لا يحب ومن لا يراه جديراً بمدحه أو كفوءاً لشعره . لقد مدح كافوراً ، فبدأ قوله بهذه الشتيمة الصريحة :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فان أعظم الداء هو الداء الذي دواؤه الموت ، ومن الألم العظيم أن يصبح الموت أمنية الأحياء . والقصد من ذلك انه يتعذب ويتألم لاضطراره الى مدح كافور ، ثم يتم هذا المعنى العجيب بالأبيات التي تلي مطلع القصيدة ، فيذكر المتنبي الذي الجأه الى هذا المديح المفتعل المصطنع ، ويقول مخاطباً قلبه :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غداراً فكن أنت وافيا
واعلم ان البين يشكيك بعده
فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا
فان دموع العين قدر بربها
اذا كن أثر الغادرين جواريا

ولأول مرة في حياته يحس المتنبي لوعة فراق الأصدقاء ، ويشعر بالحزن حين أبعده الدهر عن صفيه وصديقه الاوحد الذي فهم حياته وقدر عبقريته ، فوضعها في المكان اللائق من مجلسه العظيم .

لقد كان المديح وسيلة المتنبي في الحكمة والحياة ، ولولاه لما جرت على لسانه أبياته المجيدة وأمثاله الرائعة .

وما ذنب المتنبي وغيره من الشعراء النابهين اذا أسفّ بعض الناس ، فمدحوا المديح الجاف البارد الذي لا يشتمل على غير الاستجداء .

ان المديح سيظل فناً قائماً بذاته وان انحسر ظله في هذه الأيام فلقد يمدح الانسان صديقه ، ويمدح من يخلص له الوفاء دون أن يطلب على مديحه أجراً .

ولقد وضع شعراؤنا الكبار الاتجاه المقبول لفن المدح ، وهو الاتجاه الذي يبرئهم من العيب والنقد الجارح ، فقال أبو تمام .

ولولا خلال سنها الشعر ما درت
بناة العلى من أين تبنى المكارم

ويعيب ابن الرومي المبالغة ، ويضع القاعدة للمدح ، فيقول :

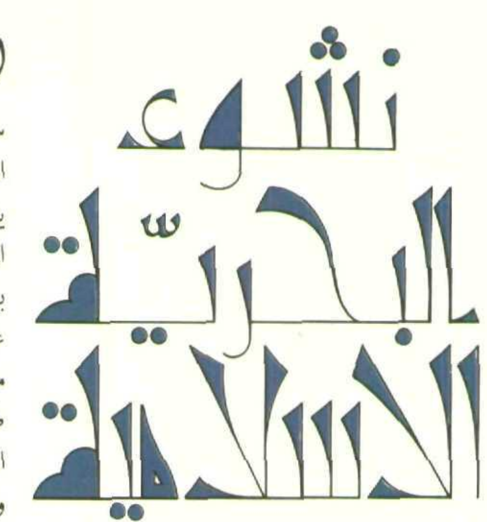
واذا امرؤ مدح امرءاً لنواله
وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى
عند الورود لما أطال رشاءه

ويعمد المتنبي الى الاعتذار عن مدحه مبيناً السبب الذي دعاه الى ذلك بهذا القول الرائع :

وما شكرت لأن المال فرحني
سيان عندي اكثار واقلال
لكن وجدت قبيحا أن يجادلنا
واننا بقضاء الحق بخال

وهكذا نخلص الى القول بأن المدح باب من أبواب الفن امتاز به الأدب العربي ، فبقي على الزمان فناً لا يحسن اهماله ولا يجوز اغفاله

■



بقلم الدكتور محمود زايد

لم تكد تمضي سنوات قليلة على انطلاق موجة الفتح العربي حتى أحرز العرب سلسلة من الانتصارات الرائعة على أعظم قوتين في الشرق الأدنى ، هما الفرس والبيزنطيون الذين كانوا يتنافسون على السيادة في المنطقة .. ففي معركة اليرموك عام ٦٣٦م تقرر مصير سوريا ، وآل بيت المقدس الى العرب وصارت فلسطين ولاية عربية . وفي السنة التالية أوقع العرب بالفرس في معركة « القادسية » فتخطوا حاجز الفرات الذي طالما وقف في وجه الغزاة ، وحال دون تقدمهم الى الشرق . وفي سنة ٦٣٩م زحف العرب على مصر ، وفي غضون سنتين أجبروا البيزنطيين على التخلي عنها .

على أن هذه الفتوحات العربية التي تمت في وقت قصير جداً قد جلبت معها تحديات للفاتحين كان من أخطرها تهديد البحرية البيزنطية للسواحل العربية التي كان العرب يسيطرون عليها . فبالرغم من فقدان البيزنطيين لجزء كبير من ممتلكاتهم في كل من آسيا وأفريقية وأوروبا فقد كانوا لا يزالون سادة البحر الأبيض المتوسط . اذ كانت دور الصناعة في الموانىء البحرية ، وبخاصة في الاسكندرية ، تزودهم بأعداد كبيرة من السفن الحربية الكبيرة والسفن المطاردة .

ومما يستلفت النظر حقا ويدعو الى الاعجاب أن العرب استجابوا لهذا التحدي الخطير بعزم واصرار ، وان كانوا قد تريثوا بعض الشيء في مواجهة البيزنطيين في البحر . ولم تمض أربع عشرة سنة على زحفهم على مصر حتى استطاعوا أن يهزموا الأسطول البيزنطي في معركة بحرية كبيرة . على أن تريث العرب في مواجهة أعدائهم في البحر اجتذب من التفات المؤرخين ما لم تجتذبه قدرة العرب على مواجهة التحدي في هذا الوقت القصير .. وهذا موقف سلبي لا يسمح باعطاء صورة دقيقة واضحة لحقيقة الوضع . فالمؤرخ « فازلييف » ، وهو حجة في التاريخ البيزنطي ، يقول في فصل عقده عن العلاقات البيزنطية الاسلامية بأن العرب عند الفتح « لم تكن لهم أي خبرة في الشئون البحرية . » وكتب الأستاذ « أرشيبالد لويس » في دراسته للقوى التجارية والبحرية في البحر الأبيض المتوسط يقول :

« .. على أن الجدير بالنظر هو أن العرب كانوا أهل بر وأهل بداوة ، وأنهم كانوا في أول أمرهم غير مستعدين ولا راغبين في مواجهة البحر في وقتها . ويظهر خوفهم من البحر بأجلى صورة في مراكز الحكم التي أقاموها .. »

وأول ما يستشهد به المؤرخون على « عدم رغبة » العرب في ركوب البحر رد الخليفة عمر بن الخطاب على معاوية بن أبي سفيان عندما طلب هذا الأخير أن يأذن له الخليفة في غزو بلاد الروم بحرا لقربها منه ، فكتب عمر

ع. قباني

الى معاوية يقول :

« لا والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه (أي البحر) مسلما أبدا . انا سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شيء على الأرض ، يستأذن الله في كل يوم وليلة أن يفيض على الأرض فيغرقها ، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر المستصعب ؟ وتالله لمسلم أحب الي مما حوت الروم ، فاياك أن تعرض وقد تقدمت اليك ، وقد علمت ما لقي العلاء مني ، ولم أتقدم اليه في مثل ذلك . »

ثم هناك نص أورده ابن خلدون في مقدمته يعلل فيه لماذا امتنع العرب في سنوات الفتح الأولى من ركوب البحر ، يقول فيه :

« والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا في أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومزاياهم في التغلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم . وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النوتية في حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم الى الجهاد فيه ، فأنشأوا فيه السفن والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب الى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والمغرب والأندلس . »

أما النص الأول ، وهو رد الخليفة عمر على معاوية ، فلا ينفي خبرة العرب في ركوب البحر ، ففيه اشارة الى ما لقي منه « العلاء بن الحضرمي » الذي كان قد ركب البحر لغزو فارس ، فعنفه الخليفة على ذلك وعزله . ولا ينفي كذلك رغبة الفاتحين في ركوب البحر . ويكفي للتدليل على هذا ، الغزو البحري الذي قام به العرب في عهد الخليفة عمر ، والحاح معاوية عليه بالسماح له في غزو الروم .

أما نص ابن خلدون ففيه تعميم لا يؤيده التاريخ . اذ لم يكن جميع العرب عندئذ أهل بداوة . وكان أهل السواحل منهم قد ركبوا البحر منذ عدة قرون . ويرجح « آلن فليرز » صاحب كتاب « قصة المحيط الهندي » أن الصيادين من العرب على شواطىء المحيط الهندي هم الذين أنشأوا فن الملاحة . ويضيف الى هذا قوله :

« لم تكن هناك أنهار (أمام الصيادين) على السواحل الجنوبية لبلاد العرب وغيرها من البقاع . وكانوا على معرفة تامة بطبيعة الفصول . وكان بينهم من عرفوا شيئا عن انتظام سير النجوم . ولا بد لمن يقضي مدة هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية على تلك السواحل أن يلاحظ كيف تتلألأ النجوم ، فهي تكاد تجبر أشد الجاهلين بالفلك غباء على الاهتمام بها . واثارة الاهتمام تؤدي الى المعرفة ، والمعرفة يمكن استخدامها لهداية القوافل في الصحراء وارشاد السفن في البحر . »

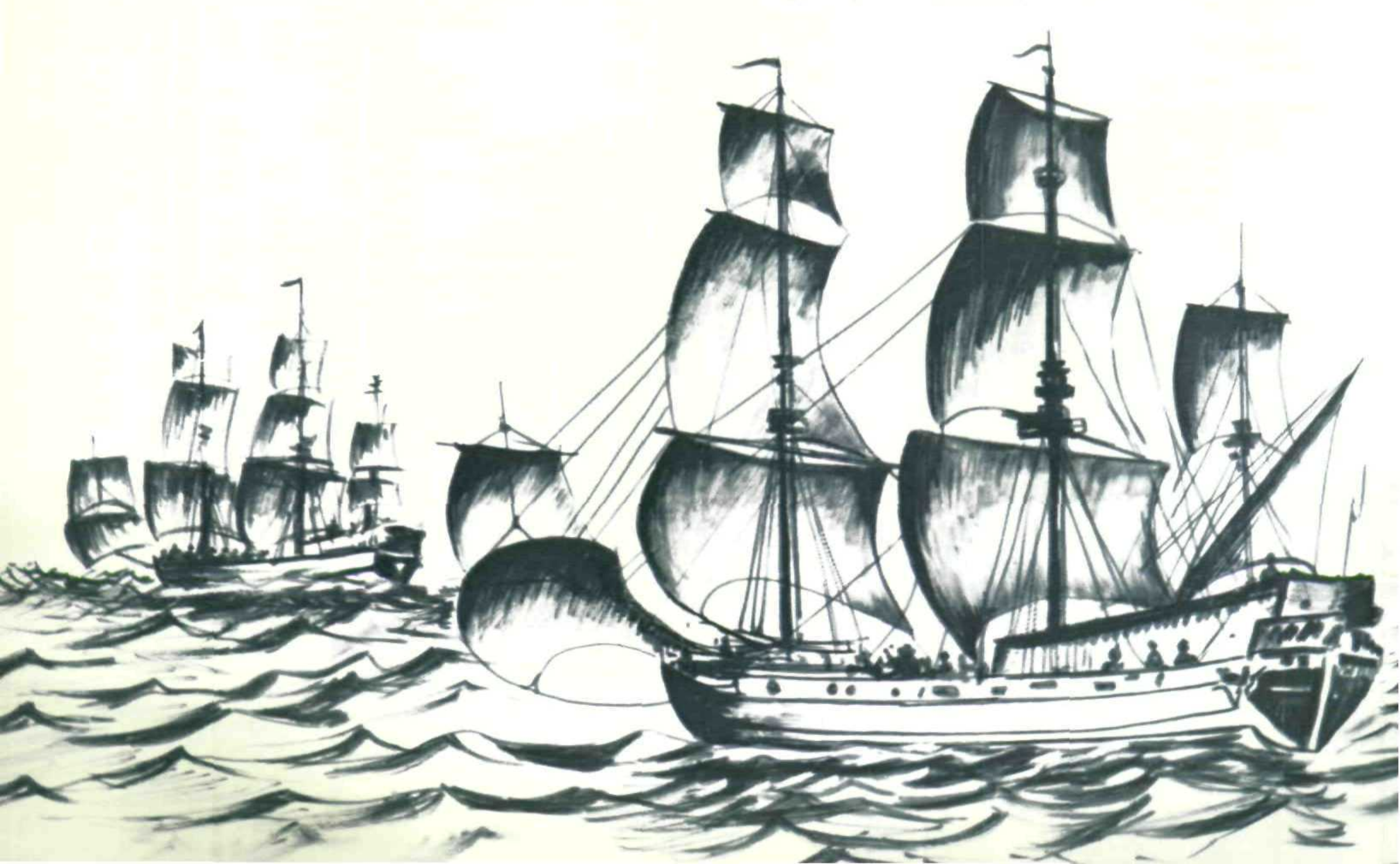
أما صاحب كتاب « الطواف حول البحر الأريثري » ، وهو مؤلف يوناني مجهول من القرن الأول للميلاد ، أراد لكتابه أن يكون دليلا ومرشدا لشؤون الملاحة في المحيط الهندي ، فيقول عن ساحل أفريقيا الشرقي :

« ويعيش على هذا الساحل أناس اعتادوا القرصنة ، وهم ذوو قامات شامخة ، ويحكم كل منطقة رئيس مستقل عن غيره . ويحكم الرئيس « المعافري » استنادا الى حقوق قديمة تجعل منطقته خاضعة لسلطان دولة صارت صاحبة الهيمنة في بلاد العرب . وأهل مخا يحكمونها الآن ، ويرسلون اليها سفنا ضخمة مستخدمين قباطنة ووكلاء عرباً لهم معرفة بالسكان وبالساحل كله ، ويفهمون اللغة . »

وهذه اشارة من أقدم الاشارات الى قدم الملاحة عند العرب والى سيطرة قبيلة « معافر » اليمنية على منطقة من ساحل أفريقيا الشرقي .

ويورد الأستاذ « جواد علي » في كتابه عن « تاريخ العرب قبل الاسلام » شاهدا يدل على أن أهل تدمر اشتغلوا بالملاحة في البحر ، فيقول :

« عثر على كتابة دونها جماعة من أهل تدمر اشتغلت بالملاحة في البحر الأحمر ، أشادت



بفضل القيصر هادريان (١١٧ – ١٣٨م) عليها . وتدل هذه الوثيقة على اشتراك التدمريين في الملاحة مع انهم من أهل مدينة صحراوية ، عماد حياتها التجارة بالبضائع الواردة اليها بالطرق البرية » .

هذه الشواهد وغيرها كافية للتدليل على أن فن الملاحة لم يكن غريبا على العرب ، وعلى أنه ربما كان نشأ على سواحلهم . فبغير هذا لم يكن ليتيسر لأهل سبأ ، الذين عرفوا مسالك البحر ، وتعرجات السواحل ، وسر الرياح الموسمية ، أن يحتكروا تجارة المحيط الهندي خلال القرون الثلاثة عشر الأخيرة قبل الميلاد .

اذاً كيف يمكننا تفسير تردد الخليفة عمر بن الخطاب في السماح للعرب بغزو البيزنطيين (الروم) في البحر ؟

ان الانتصارات الأولى الحاسمة التي أحرزها العرب على البيزنطيين والفرس في اليرموك ، والقادسية ، وبابليون ، لتكشف لنا عن استراتيجية وتحركات عسكرية كانت ملائمة لطبيعة المحارب العربي ومهارته ، وكفيلة بتفوقه على خصمه ، وتضع تحت سيطرته قلب البلاد . فلباسه وسلاحه لا يثقلان كاهله ، ويمكنانه من الانتقال على ظهر جمله من مكان الى آخر بسرعة مذهلة ، ومهاجمة العدو من كل جانب ، وقطع خطوط مواصلاته ، وخط رجعته . وكانت معرفته بالصحراء ، التي يجعلها من ورائه ، تضمن له سلامة الانسحاب فيما لو اضطر الى التراجع . أما في البحر فلم يكن الأمر كذلك ، وبخاصة في البحر الأبيض المتوسط ، حيث كان الأسطول البيزنطي مسيطراً . وعليه فكان من الحكمة أن يتريث العرب في مواجهة أعدائهم في البحر . ومن المعروف عن الخليفة عمر الاتزان ، وتجنب المغامرة بأرواح المسلمين ، حيث لا ضرورة للمغامرة .

وتبدو حكمة الخليفة الثاني في هذا الأمر بأوضح صورة من موقفه حيال اعادة فتح القناة الفرعونية القديمة التي كانت تصل النيل عند بابليون بالبحر الأحمر عند القلزم (السويس الحالية) وذلك لتسهيل نقل قمح مصر الى المدينة المنورة . وكان الامبراطور « تراجان » قد أعاد فتح القناة ، ولكنها طمرت بالتراب بعد ذلك . وفي عام ٦٤٤م سمح الخليفة لعمرو بن العاص باعادة فتح القناة ففتحت ، وقامت عشرون سفينة بنقل المؤن الى الحجاز . فلما استأذنه عمرو بن العاص بشق قناة أخرى تصل بحيرة التمساح بالبحر الأبيض المتوسط شمالا ، لم يأذن له ، وذلك لخوفه من أن يستخدمها الأسطول البيزنطي للعبور واعتراض طريق الحج ، فضلا عن تهديد مصر .

على أن العرب لم يلبثوا أن أدركوا أن مجابهة البيزنطيين في البحر ضرورة ملحة قد يتوقف عليها مصير بعض فتوحاتهم . ففي سنة ٦١٥م وجه الامبراطور « قنسطانز » الثاني حملة بحرية بقيادة « مانويل » لاستعادة الاسكندرية ، ويقول البلاذري في هذا الصدد :

« وكتب الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وهو كان الملك يومئذ ، يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين . وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية ، فبعث رجلا من أصحابه يقال له مانويل في ثلاث مئة مركب مشحونة بالمقاتلة . فدخل الاسكندرية ، وقتل من بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب ، فنجا . وذلك في سنة خمس وعشرين للهجرة . »

واستطاعت هذه الحملة فعلا أن تستعيد الاسكندرية . فحاولت أن تتخذها قاعدة للتوغل في مصر . على أن العرب ، بقيادة عمرو بن العاص ، تمكنوا من انزال هزيمة شنعاء بمانويل عند « نيقيوس » . وتمكنوا بالتالي من انقاذ الاسكندرية . وكان الامبراطور البيزنطي قد أرسل في الوقت ذاته ، وخلال ولاية معاوية ، حملة بحرية أخرى الى الشام ، ولكنها منيت بالفشل .

وازاء هذا الخطر البحري البيزنطي الماثل عاد معاوية يلح على الخليفة عثمان بن عفان بضرورة غزو جزيرة قبرص لقربها وسهولة الأمر فيها . فتردد الخليفة عثمان في البداية ، ثم أذن له على شرط أن يصحب معه امرأته . وكان معاوية في سوريا وعبد الله بن آل سرح في مصر قد استغلا موانيء سوريا وأحواض السفن في الاسكندرية وخبرة أهل البلاد في بناء السفن ، فعملا على بناء أسطول اسلامي لأغراض الدفاع والغزو .

وكانت استجابة العرب لهذا التحدي البيزنطي الكبير في وقت قصير كهذا ، عملا رائعا ينبغي أن ينال من اهتمام المؤرخين قدرا أكبر من تردد العرب في ركوب البحر . ففي سنة ٢٨ للهجرة ركب معاوية البحر من عكا ومعه امرأته فاختة بنت قرظة . فطلب واليها الصلح ، فصالحهم معاوية على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها في كل عام . واشترط المسلمون على أهلها ابلاغ العرب عن استعدادات البيزنطيين وتحركاتهم . فلما نقض أهل هذه الجزيرة الصلح ، عاد معاوية فغزاها مرة أخرى وفتحها عنوة ، ثم أمن أهلها على صلحهم .

وكانت هذه الحملة البحرية على قبرص ايذانا باستهلال فصل جديد في تاريخ الملاحة في البحر الأبيض المتوسط والسيادة عليه ، كما كانت فاتحة لسلسلة من الانتصارات البحرية العربية نشرت هيمنتهم على أكثر سواحله ، وبعثت فيهم الحماسة للسيطرة على السواحل الباقية. ولم يفت البيزنطيين هذا التهديد الخطير من عدو عقد العزم على الاستيلاء على بلاده . ففي عام ٦٥٥م أعد الأمبراطور « قنسطانز » الثاني أسطولا ضخما مكوّنا من نحو ١٠٠٠ سفينة ، والتقى به مع سفن سوريا ومصر الاسلامية في معركة « ذات الصواري » على ساحل ليسيا من آسيا الصغرى قرب مكان يعرف بـ « فينكس » ، استبسل فيها المسلمون واستخدموا فيها فنا جديدا في القتال البحري ، اذ ربطوا سفنهم بسفن العدو ، ووثبوا على أعدائهم يضربونهم بالسيوف . وانتهت المعركة بأول نصر كبير للعرب في البحر . ويورد الطبري رواية عن مالك بن أوس بن الحدثان يصف فيها هذه المعركة ، فيقول :

« .. كنت معهم ، فالتقينا في البحر ، فنظرنا الى مراكب ما رأينا مثلها قط . وكانت الريح علينا ، فأرسينا ساعة ، وأرسوا قريبا منا . وسكنت الريح عنا ، فقلنا : الأمن بيننا وبينكم . قالوا : ذلك لكم ، ولنا منكم . ثم قلنا : ان أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وان شئتم فالبحر . قال : فنخروا نخرة واحدة ، وقالوا : الماء .

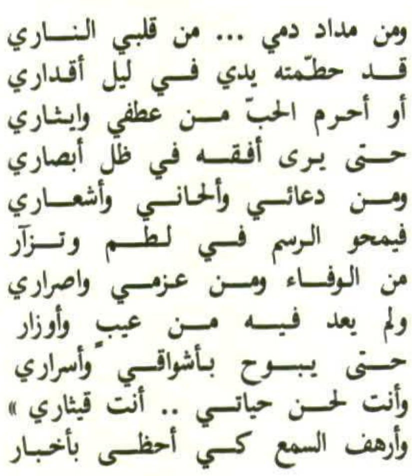
فدنونا منهم ، فربطنا السفن بعضها الى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم ، فقاتلنا أشد القتال . وثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ، ويتواجئون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما . »

وبهذا الانتصار الكبير فرض العرب وجودهم البحري في البحر الأبيض المتوسط ، وانصرف البيزنطيون عن مهاجمتهم في البحر . ولم تكد تمضي سنين قلائل حتى استأنف العرب في أيام معاوية صراعهم مع البيزنطيين بحملة بحرية عظيمة استهدفت القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، وهددت وجود دولتهم بالزوال ■

من وحي الأمومة

للشاعرة جليلة رضا





من نبع قلـبي ومن دمع الهوى الجاري ... ومن مداد دمي ... من قلبي النـاري

رسمت « لوحة حبّ » كان مـن زمن ... قـد حطّمته يدي فـي ليل أقداري

ولم أشأ أن أراعـي فـي الهوى ثمنا ... أو أحرم الحبّ مـن عطفي وايثاري

فجئـتـه بضيـا عيـني وبهجتهـا ... حـتى يرى أفقـه في ظل أبصاري

ورحـت أرسم تاجـا فـوق هامتـه ... ومـن دعائـي وألحانـي وأشعـاري

وخشية الريـح أن يمتـد ساعدها ... فيمحو الرسم فـي لطـم وتـزآر

أحطتـه باطـار صغت أضلعـه ... من الوفـاء ومن عزمـي واصراري

واذ بـدا الرسم تيّاهـا بـرونقـه ... ولم يعد فيـه مـن عيب وأوزار

عوذتـه بدعـاء الـروح بـارئـهـا ... حـتى يبـوح بأشواقـي وأسراري

وقلت « عـدْ لي فان النفس موحشة ... وأنت لحـن حياتـي .. أنت قيثاري »

ورحت أرقب رسمي فـوق « لـوحتـه » ... وأرهف السمع كـي أحظـى بأخبار

وران صمت عـلى الأجـواء منتشر ... وظلّلت غفـوةٌ عيـني بإنكـار

ثـم انتبهت فـإذ بالضوء منهمـر ... يَندّى عبيرا فمـن ورد وأزهـار

وراعـني ما رأت عيناي فـي دهش ... رسما تبسم لـي ..! يا قدرة البـاري

رسما تبدّل أنـثى فـي ملامحهـا ... خفر العذارى .. وحسن هادىء ساري

أنـثى تـراءت كأن الله أودعهـا ... سرّ الملائـك مـن طهـر وأنـوار

تقطّـر النور تقطيرا جدائلُـهـا ... وتـنـثر الـورد كفـّاها بمدرار

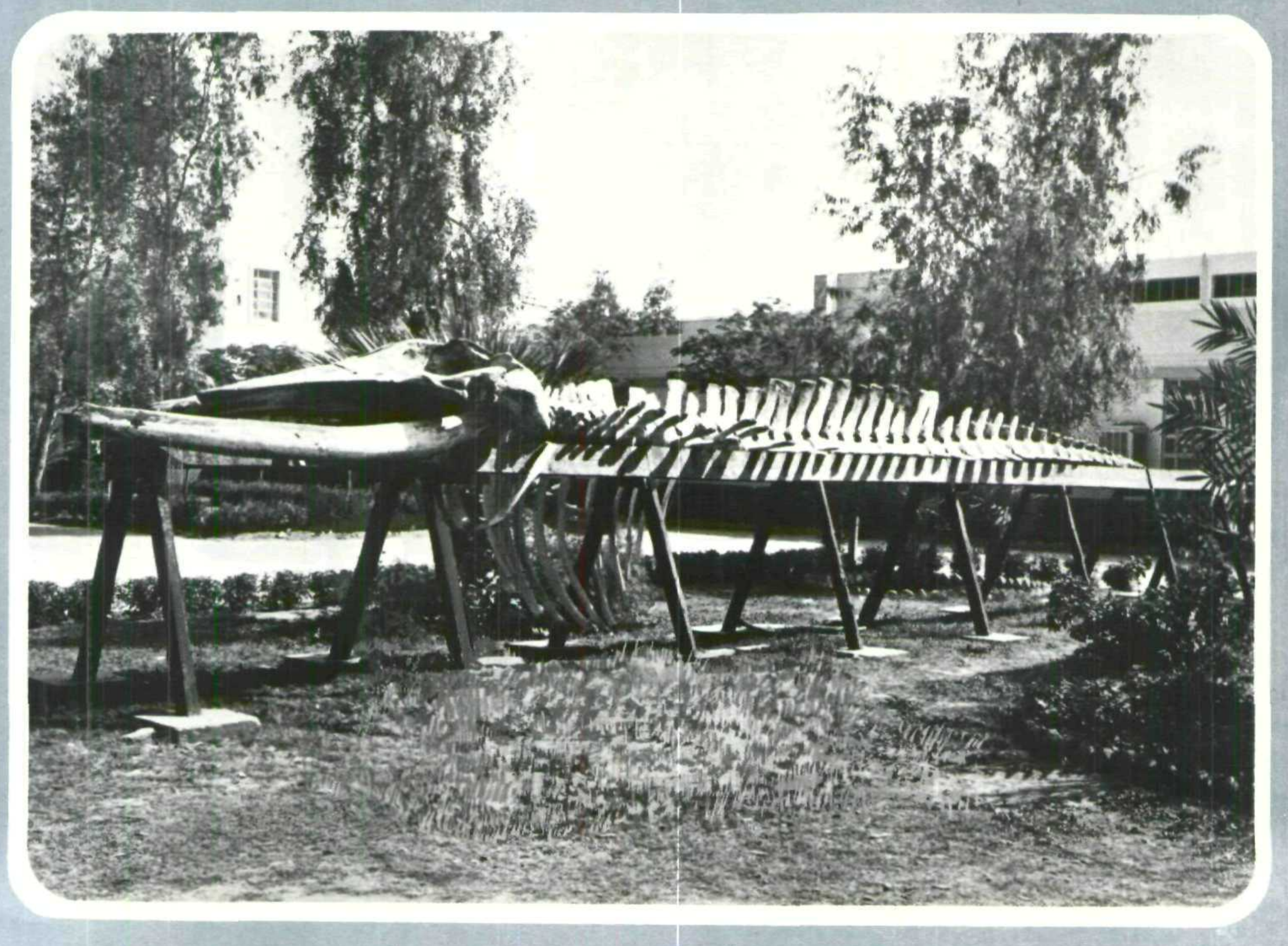
وتحت أقدامهـا تجـري مسلسلةً ... جداول المـاء فـي تيار أنهـار

ثـم انثنت بجناحيـهـا مرفـرفـة ... حولـي متمتمة فـي همس أطيـار

« أنـا الأمومـة لا حب يجابهـني ... ولا جمال يحاكـي حسني العاري »

وحينذاك خفضت الطـرف خاشعـة ... ولهـى ... أسبّح فـي حمد واكبار

المتاحف في جامعة الرياض



هيكل عظمي لحوت ضخم لفظته أمواج الخليج العربي وقام بتجميع عظامه وتركيبها قسم الحيوان التابع لكلية العلوم بجامعة الرياض . ويبلغ طول هذا الهيكل نحو ٤٨ قدما .

تنص الموسوعات العلمية في تعريفها « للمتحف » على أنه منشأة علمية وثقافية تضم بين أرجائها كنوز المدنيات والحضارات القديمة ممثلة في روائع الآثار والفنون . والهدف من هذه المنشأة هو عرض التراث الانساني ونفائس الآثار في شكل معروضات وصور تعكس مظاهر التقدم العلمي والصناعي والفني التي حققها الانسان على تعاقب الأجيال بأساليب عرض جذابة . ويعتبر المتحف معهد بحث ودراسة وتثقيف للباحثين وغيرهم .

وانطلاقا من هذا التعريف ، وادراكا للفائدة العميمة التي تعود بها المتاحف على الفرد ، وتمشيا مع الفهم العلمي الجامعي السائد في معظم أرجاء العالم ، تأسست في جامعة الرياض خمسة متاحف ، ثلاثة منها في كلية العلوم ، وهي : متحف النبات ، ومتحف الحيوان ، ومتحف الجيولوجيا ، واثنان في كلية الآداب ، وهما : المتحف الأثري لجامعة الرياض ، ومتحف التراث الشعبي . وقد أنشئت هذه المتاحف لتكون مؤسسات علمية ثقافية تستقبل طلاب الجامعة وعموم الدارسين والزوار ، وأمكنة حارزة تحفظ فيها نفائس الآثار والتحف ، خشية أن تمتد اليها يد العبث والبلى .

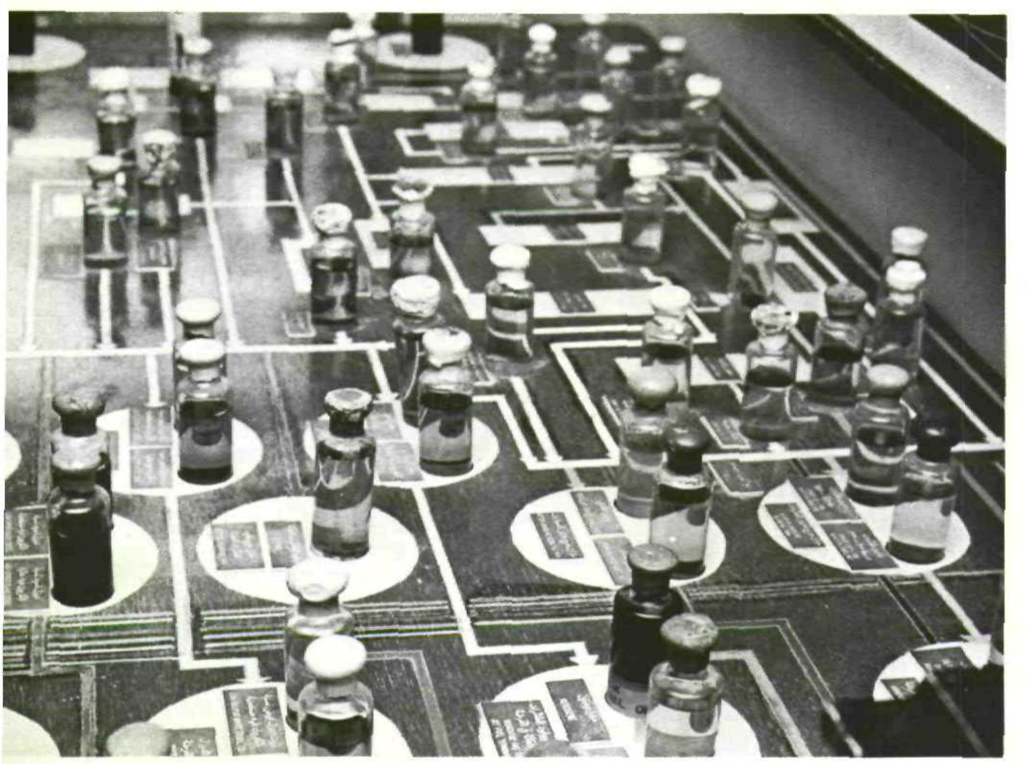
ومع أن هذه المتاحف حديثة العهد ، شأنها في ذلك شأن الجامعة التي ترعاها ، الا أن النية تتجه الى توسيعها وتطويرها بحيث تواكب في المستقبل القريب مثيلاتها في كبريات جامعات العالـــم .

متحف النبات

ويعنى به قسم النبات في كلية العلوم ، وهو يضم بالاضافة الى غرفـة العرض معشبة حديثة يرعاها رئيس القسم الدكتور أحمد محمد مجاهد . وقد نشأ متحف النبات في الجامعة مع نشأة كلية العلوم أي منذ نحو عشر سنوات تقريبا ، وتضم غرفة العرض خزائن ورفوفا خاصة بكل نوع من المعروضات ، وهي ذات واجهات زجاجية تتيح النظر الى المعروضات دون لمسها . وتشمل عينات المعروضات النباتية : الفطريات ، والبكتيريا ، والثمار ، والأزهار والبذور ، والبوادر ، والأوراق ، والسيقان والجذور ، والطحالب ، والنباتات الاقتصادية ، والمستحاثات (المتحجرات) النباتية ، والأمراض النباتية التي تصيب مختلف أصناف النباتات .



جانب من غرفة العرض التابعة لمتحف النبات وهي تشمل عينات نباتية لمختلف أنواع الفطريات والبكتيريا والثمار والبذور والمستحاثات النباتية وغيرها .



عشرات من عينات المنتجات البترولية التي تنتجها المملكة العربية السعودية .

مجموعة من الزواحف والحيوانات المنقرضة وغير المنقرضة التي يحويها متحف الحيوان بجامعة الرياض ، الى جانب لوحات تفصيلية تبين أصنافها وفصائلها .

مجموعة من أصناف الطيور والحيوانات التي يشتمل عليها متحف الحيوان في الجامعة .

وتضم غرفة العرض مجاهر دقيقة ، ومجسمات مصنوعة من الجبس واللدائن لعينات من نباتات مختلفة أو لأجزاء منها ، وملصقات نباتية تفصيلية. أما المعشبة فغرفة أصغر من غرفة العرض ، وهي تضم خزائن ذات رفوف فسيحة تحفظ فيها عينات من مختلف النباتات الزهرية البيئية مجففة على صفائح ورقية ، بطريقة خاصة ، وتشمل هذه العينات معظم نباتات المملكة الزهرية مرتبة حسب أصنافها وفصائلها وأماكن نموها .

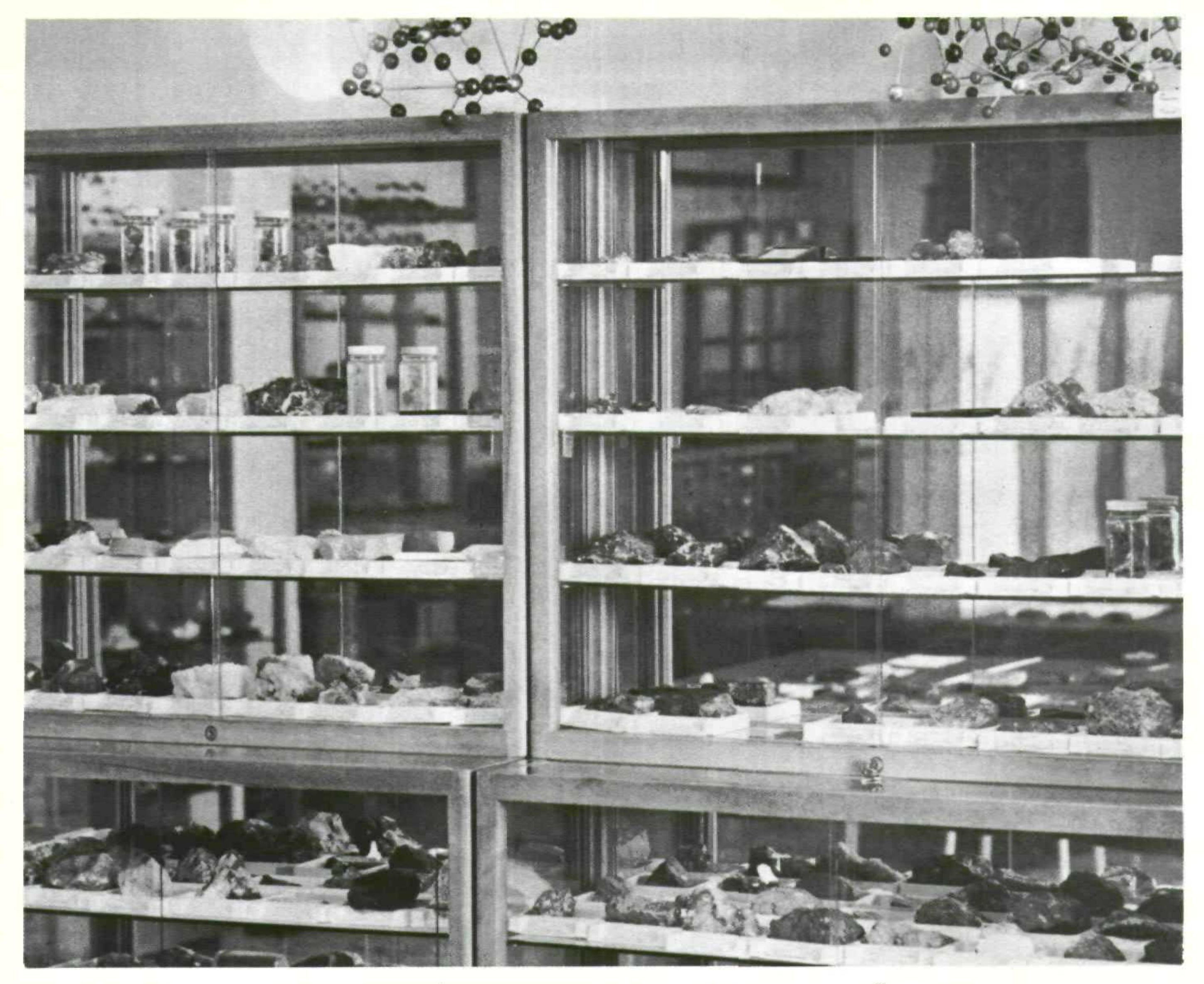
ويقوم بجمع العينات المعروضة في متحف النبات والمعشبة الملحقة بــه أساتذة الكلية وطلاب السنة الرابعة فيها أثناء زيارات تعدها الكلية لمناطق مختلفة من المملكة ، فالطحالب مثلا تجمع من البحر الأحمر والخليج العربي ، وتصبر بحفظها في محاليل من « الفورمالين » المخفف أو الكحول المخفف ، كما تجمع من كافــة مناطق المملكة عينات من مختلف النباتات التي تنمو فيها . وفي حالة اصابة بعض النبات بأمراض فطرية أو حشرية ، تجمع عينات من النباتات المصابة وتحفظ لدراسة أعراض هذه الأمراض . أما عينات النباتات الاقتصادية ، وهي النباتات البرية ذات الفوائد الاقتصادية ، كالنباتات التي تستخرج منها العطور والسموم والعقاقير ، فانها تجمع لدراستها وتحديد أصنافها ، وأماكن الحصول عليها . وتقوم هيئة التدريس في الكلية بتصنيف كافة عينات المتحف ، وتكتب المعلومات المتعلقة بكل عينة منها على بطاقة خاصة بها . ويتعاون متحف النبات في جامعة الرياض مع صنوه في جامعة القاهرة ، اذ يتبادل المتحفان بعض العينات التي تتوفر لدى الواحد منها دون الآخر . ويعكف قسم النبات في كلية العلوم على توفير مجموعة كاملة لأصناف النباتات التي تنمو في المملكة لدراستها والتعريف بها . ويعتبر ذلك على غاية من الأهمية ، لأن مثل هذه المحاولة ربما تكون الأولى من نوعها بالنسبة للحياة النباتية في المملكة العربية السعودية .



بعض أصناف الطيور المحلية التي تضمها رفوف متحف الحيوان .. وقد بدت الى جانب كل عينة منها بطاقة تحمل اسـم الطائر والفصيلة التي ينتمي اليها وبعض المعلومات الأخرى .

احدى قاعتــي العرض التي يتألف منهما متحف الجيولوجيا مــن جامعة الرياض وهي تشمل عينات من منتجات الزيت الى جانب عينات من الصخور والمتحجرات التي تكشف عن أصل الزيت ومراحل تكوينه في بــاطن الأرض . كما يبدو في أقصى اليمين ، نموذج مجسم لمكمن زيت يعلوه بــرج للحفر .

مجموعة من عينات الصخور والمتحجرات التي يضمها متحف الجيولوجيا ، وتحمل كل عينة من هذه العينات أرقاما وتعليقات تساعد الباحث على التمييز بين أنواعها والأزمنة التي تعود اليها .



نماذج أخرى من المعروضات الجيولوجية التي تحويها قاعة العرض في متحف الجيولوجيا .

متحف الحيوان

ويعنى به قسم الحيوان في كلية العلوم أيضا برئاسة الدكتور عباس ابراهيم حسن . وقد تأسس هذا المتحف مع بداية الدراسة في كلية العلوم . ويضم المتحف اليوم خبيرا في التصبير وتصميم بيئات اصطناعية للعينات ، مما يجعلها تبدو أكثر جاذبية وأجمل تنسيقا .

وتضم رفوف المعرض وخزائنه عينات كثيرة من الشعاب المرجانية المختلفة الألوان والأشكال ، والعديد من صنوف الأسماك المحلية والحيوانات البحرية المجلوبة من الخليج العربي والبحر الأحمر . هذا بالاضافة الى عينات عديدة من أنواع الزواحف والطيور والحشرات الثديية الموجودة في شتى مناطق المملكة . كما يضم المتحف هياكل عظمية أو مجسمات لهياكل عظمية لعديد من الحيوانات المنقرضة وغير المنقرضة ، الى جانب لوحات تفصيلية تمثل بعض الحيوانات أو أجزاء منها . وتحفظ الزواحف وبعض الحشرات في أوعية زجاجية مملوءة بمحلول « الفورمالين » المخفف ، كما تحفظ أصناف من الفراش والحشرات الأخرى على صفائح من الورق المقوى ثم تغطى بالزجاج .

وقد قام قسم الحيوان في كلية العلوم بتجميع عظام حوت ضخم يبلغ طوله ٤٨ قدما كانت أمواج الخليج العربي قد لفظته في أوائل عام ١٩٦٥ عند ميناء رأس تنورة .

ويحصل قسم الحيوان على عينات المتحف اما من حديقة الحيوان في الرياض ، وذلك عندما يموت أحد الحيوانات فيها ، أو من بعض هواة الصيد والقنص .

ويعزم القائمون على المتحف على اجراء مسح للثروة الحيوانية في المملكة ، وتزويد المتحف بما ينقصه من العينات . كما أنهم يبذلون جهودا كبيرة في مجال تصنيف العينات وتسميتها . وفي كثير من الحالات يستعينون بخبراء المتاحف والجمعيات العلمية في مختلف أقطار العالم في سبيل تحقيق ذلك .



نماذج لعينات من مختلف أصناف التربة التي يضمها متحف الجيولوجيا .

ويفتح متحف الحيوان في جامعة الرياض أبوابه لطلبة كلية العلوم ولكافة المعنيين بدراسة علم الحيوان .

متحف الجيولوجيا

ويشرف عليه قسم الجيولوجيا في كلية العلوم أيضا برئاسة الدكتور ابراهيم فرج . وقد تأسس هذا المتحف منذ نحو عشر سنوات ، كرّست السنوات الثلاث الأولى منها لجمع العينات الصخرية التي تمثل مختلف العصور الجيولوجية ، من كافة أنحاء المملكة .. وأثناء ذلك ، كان القسم يستعين بعينات ادارة التنقيب في شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) لتصنيف عيناته وترتيبها والتعرف الى المبهم منها مع اعطاء المعلومات الوافية عنها .

ويضم متحف الجيولوجيا قاعتي عرض واسعتين مزودتين بخزائن ذات واجهات زجاجية . وتشمل مصنفات المتحف عينات تمثل العناصر الكيماوية والمعادن وصخور الحقب الجيولوجية المختلفة من نارية ورسوبية ومتحولة ، ومجسمات لمقاطع جيولوجية وصخرية وبعض هياكل الحيوانات . كما يضم عينات حجارة البناء والزخرفة ، وعينات من مختلف أصناف التربة في شتى مناطق المملكة.

وينظم قسم الجيولوجيا شأنه شأن غيره من أقسام كلية العلوم ، رحلات علمية الى مختلف مناطق المملكة بغية دراسة جيولوجيتها ، وجمع عينات منها تشمل الصخور والمتحجرات والتربة .. ثم تصنف هذه العينات وتحفظ حسب أهميتها بين معروضات المتحف الأخرى .

والمتحف مزود بآلة لقطع الصخور ، وهو وان كان حديث التأسيس الا أنه يعطي الزائر فكرة وافية عن جيولوجية المملكة العربية السعودية وتركيب طبقات الصخور فيها .

متحف الآثار

وهو حديث عهد بالمقارنة بمتاحف كلية العلوم ، اذ تأسس بعد عودة المبتعثين السعوديين المتخصصين بالتاريخ والآثار الى الجامعة في عام ١٩٦٦ ، ليكون متحفا يعكس العصور التاريخية التي تعاقبت على الجزيرة العربية ، ومنتجعا علميا يؤمه دارسو الآثار وهواتها والمعنون بها . ويجري العمل الآن على تصنيف موجوداته وتنضيدها ، وردها الى مختلف العصور التاريخية .

ويضم المتحف حاليا عينات كثيرة لمنقوشات حجرية تحمل كتابات متنوعة ، وعينات فخارية ومسكوكات نقدية . كما يضم من ناحية أخرى مختبرا لتصوير القطع الأثرية بغية دراستها وتصنيفها ومبادلتها بصور القطع الأثرية التي تحتفظ بها المتاحف الأخرى المماثلة . ويضم أيضا قسما لترميم القطع الأثرية وصيانتها والحفاظ عليها . وسيقوم هذا القسم بصنع نماذج مجسمة من الجبس لبعض القطع الأثرية الهامة ، في حين يقوم قسم الرسم والزخرفة في المتحف بدراسة بعض القطع الأثرية وتصميم رسوم لها ، وتصنيف هذه الرسوم وفقا للأزمنة والعصور التاريخية التي تمثل مختلف القطع الأثرية . ويضم المتحف قسما للمسح الأثري يعنى بتنظيم رحلات دورية علمية الى مناطق المملكة الأثرية لتحديدها وتصميم خرائط أثرية لها . وبالاضافة الى ذلك تتبع متحف الآثار مكتبة تضم مختلف الكتب والمراجع التي تبحث تاريخ الجزيرة العربية والشرق الأوسط وآثارهما .

هذا ، ويحتل المتحف جزءا كبيرا من الطابق الأرضي في المبنى الرئيسي لكلية الآداب ، وهو مزود بخزائن خاصة للعرض مصفحة بزجاج غير عاكس للضوء . ويشرف على المتحف الدكتور عبد الرحمن الانصاري ، ويساعده الدكتور صبحي أنور رشيد ، وكلاهما من أساتذة قسم التاريخ في كلية الآداب .

أما مصادر عينات هذا المتحف فمتعددة . ولعل أهمها ادارة الآثار التابعة لوزارة المعارف . التي أمدت المتحف بالعديد من القطع الأثرية . وقد اشترت الجامعة نحو ٤٠٠ مسكوكة نقدية من مجموعة السيد محمد الفارس ، أحد أعيان القطيف ، وكثيرا من النقوش والقطع الفخارية ، كما اشترت بعض القطع التي تحمل نقوشا وكتابات اسلامية من السيد مبارك السلمي من أهالي جدة . وتقوم بشراء مجموعات من القطع الأثرية النادرة من أشخاص غيرهما . وبالاضافة

الى ذلك ، يقوم طلاب كلية الآداب وأساتذتها برحلات استطلاعية الى مناطق أثرية مختلفة من المملكة ، وكثيرا ما يعودون من هذه الرحلات ببعض القطع الأثرية ، فتنظف وترمم وتصنف ، وتضاف الى معروضات المتحف .

ومن ناحية أخرى ، استعانت الجامعة عند تأسيس هذا المتحف ، وما زالت ، بمديرية الآثار العراقية ودائرتي الآثار السورية والأردنية ، لما لدى هذه الجهات من خبرة طويلة في حقل الآثار . كما يحظى المتحف بتشجيع من قبل عدد من علماء الآثار البارزين ، وخصوصا الأوروبيين الذين أهدوا مكتبته نسخا من مؤلفاتهم ومجلاتهم الدورية .

متحف التراث الشعبي

وهو يقع الى جانب متحف الآثار في المبنى الرئيسي لكلية الآداب ، وقد تأسس عام ١٩٦٦ بغية الحفاظ على التراث الشعبي ، ودراسة مختلف عيناته وتصنيفها .

وتشمل موجودات هذا المتحف عينات من الأزياء الشعبية والمجوهرات والأدوات المنزلية ، والزراعية ، وأدوات السقيا ، والمفارش ، والبسط ، والأدوات الجلدية ومعدات الحرب ، وصناعة الخوص والسعف والجريد والزري والصوف وغير ذلك . كما تشمل لوحات تمثل مختلف نواحي الحياة الشعبية للمملكة ، وصورا فوتوغرافية مماثلة .

وهذه المعروضات منظمة ومصنفة جغرافيا ونوعيا ، بحيث تعكس المعلومات المتعلقة بها .

ويتم الحصول على هذه العينات التي تعكس التراث الشعبي على شكل هدايا يقدمها بعض المواطنين للمتحف ، أو عن طريق شرائها من الأسواق المحلية أو الأفراد . ويفتح متحف التراث الشعبي أبوابه بالاضافة الى طلاب جامعة الرياض لكافة الدارسين والزوار ممن يعنون بالحياة الشعبية والتراث الشعبي للمملكة العربية السعودية .

ان متاحف جامعة الرياض لا تزال ناشئة ، ولكنها براعم نامية متفتحة لمنشآت علمية وثقافية تمد قوافل العابرين على دروب النور برصيد وافر من العلم والمعرفة ■

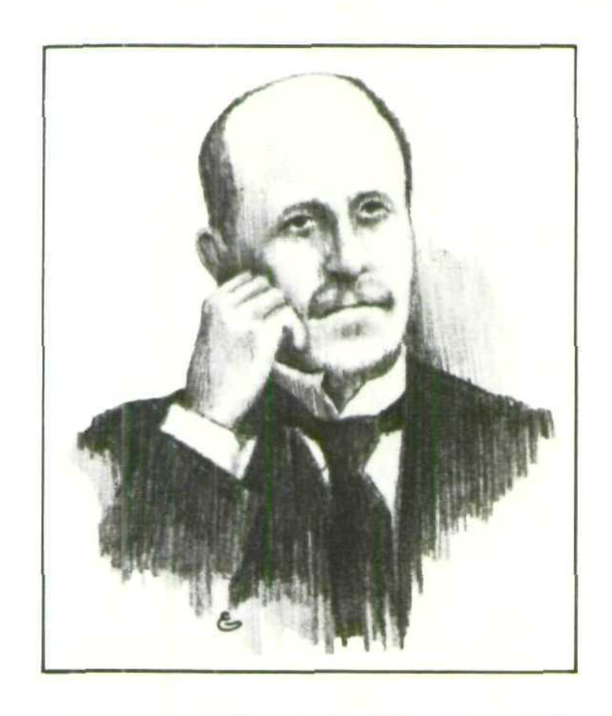


جانب من احدى قاعتي العرض التابعتين لمتحف الجيولوجيا ، والمزودة بخزائن ذات واجهات زجاجية تتيح للزائر النظر الى المعروضات دون لمسها .

تصوير : عبد اللطيف يوسف

الدكتور يعقوب صرّوف

قبس من فضله وذرو من ذكريات عنه



بقلم الاستاذ محمود ابو رية

من يريد أن يدرس تاريخ الحركة العلمية – من جميع أقطارها – الأدبية والاجتماعية وما اليها من ألوان الثقافة الانسانية في العصر الحديث ، فلا بدّ له من أن يرجع الى أهم مصدر لكي يجد فيه طلبته ، ويعينه على الوصول الى بغيته . هذا المصدر هو مجلة (المقتطف) ، ذلك بأنها المجلة الوحيدة ذات العمر الطويل التي تعتبر ولا ريب دائرة معارف عربية شرقية ، فيها ما شئت من علم وفلسفة وما ابتغيت من لغة وأدب وفن . وقد صدق من قال فيها : انها كافية لتثقيف المرء ، وان من لم يطلع عليها لا يعتبر مثقفا كاملا .

وما رأينا اسما يطابق مسماه أكمل مطابقة ، من اسم (المقتطف) ، فقد اقتطف له من رياض العلوم والفنون ما نضج من ثمراتها وفاح أريجه من أزهارها ، وبحق سموها (شيخ المجلات) في الشرق كله .

وليس من همنا اليوم أن نفصّل القول في هذه المجلة وما اشتملت عليه مجلداتها التي تزيد على السبعين ، بلْه ملاحقها السنوية ، وكان كل ملحق منها يقع في مجلد ضخم ، لأن ذلك يحتاج الى دراسة مستفيضة تستغرق أعواما طويلة ، ويستوعب مجلدات عديدة – وانما سبيلنا أن نكتب كلمة موجزة نقصّ فيها ذروا نومىء به الى هذا الذي حمل أثقال هذه المجلة ورفع منارها طوال حياتها ، وهي أعباء تنوء بها العصبة أولو القوة ، والذي وقف حياته على امدادها بالمواد الخصبة ، والبحوث القيمة ، ان انشاء مما تمدّه به قريحته الفياضة ، أو مما يختار من عصير قرائح فحول العلماء وكبار الكتاب ، وكان لا يختار الا كل نافع مفيد ويمزج ذلك ببعض ذكريات عنه ، ذلك هو العلامة الكبير الدكتور يعقوب صرّوف الذي اقترن اسمه باسم (المقتطف) حتى أصبحا متلازمين كاللازم والملزوم ، بحيث اذا ذكر اسم أحدهما سبق الى الذهن اسم الآخر .

وكأن الله سبحانه قد فطره وأعدّه ليضطلع بهذا العمل الجليل فآتاه مواهب عالية وصفات نبيلة ، وكمّله بعلم غزير لا ينضب معينه – ومن تمام فضله عليه أن يسر له سبيل الحياة وكفاه موؤنة السعي لعيشه فكانت عيشته رغدا – وبذلك يتفرغ لعمله هادىء البال ، مستريح النفس ، مطمئن القلب ، لا يشغله شاغل عن القيام بما ألقي على عاتقه على أكمل وجه ، وليوفي به على الغاية . وهذه نعمة كبرى متى توفرت لانسان كان من السعداء ، ذلك بأن المسغبة وضيق العيش يطفئان ، ولا ريب ، نور القريحة ، ويئدان قوة العزيمة . ويدعونا سياق الحديث الى أن نذكر هنا حديثا سمعناه من صديقنا الشيخ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله صاحب مجلة « البيان » : حدثني هذا الصديق ذات يوم عما أصابه من ذهاب ثروته التي ورثها عن أبيه ، وكانت كبيرة ، في سبيل الانفاق على مجلته . وبعد بضع سنين أصابها البوار والكساد وخرج منها خاسرا – وبعد أن تنفس الصعداء قال : انه كان يوما في زيارة للدكتور يعقوب صروف وفي حديث بينهما قال الدكتور كلمة بلغت منه

مبلغا أليما ، وتأثر بها تأثرا عميقا وهي حقا ذات أثر بعيد . أما هذه الكلمة فها هي ذي بنصها « لو أنا فكرت دقيقة واحدة في أمر ما أتناوله من طعام أو شراب ما استطعت أن أكتب حرفا ! » ذلك بأن قرينته الفاضلة كانت تكفيه عناء التفكير في أي أمر يشغله وتوفر له الراحة والهدوء . والزوجة الصالحة من أكبر نعم الله على الانسان وتعتبر من سعادته .

وإني ٧ لأذكر هنا موقفا حميدا كان لي مع هذا العلامة الجليل ، دلّ فيه على أنه عالم مهذّب كريم . ذلك أني كنت قد لاحظت على مجلة المقتطف أنها كانت تقدم في النشر مقالات الآنسة (مي) على مقالات الكاتب البليغ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله . فأخذتني الغيرة من ذلك على حرمة الأدب ، وكتبت اليه في ذلك وأبنت له فيما كتبت ، أنه ليس هناك مسوّغ لهذا التفضيل الذي لا تستحقه ! ثم عرضت الى الفرق الهائل بين أسلوبها وأسلوب الرافعي وقلت أن أسلوبها تغشاه ظلمة الغموض والابهام ، وليس فيه أي لمعة من نور البيان ! ! وقد قالوا : « ان أحسن الكلام ما يكون جزلا سهلا ، لا ينغلق معناه ، ولا ينبهم مغزاه » . وكنت حينئذ (سنة ١٩٢٤) أتولى تحرير جريدة « التوفيق » وأسهم في تحرير جريـــدة « المنصورة » ، وكانتا تصدران بمدينة المنصورة ، وكذلك كنت أراسل جريدتي « المقطم » و « السياسة » ولم ألبث قليلا حتى تلقيت منه جوابا رقيقا تاريخه ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤ كان يسعدني أن أنشره هنا بكماله(١) ولكن المجال لا يتسع له وأكتفي بنشر فقرات منه وفاء بحق التاريخ .

قال طيّب الله ثراه في مفتتح هـــذا الخطاب :

حضرة الرصيف الكريم ، سلاما واحتراما وبعد فقد تلوت ما تكرمتم به ، وفيه أمران : الأول ، ترتيب المقالات ، فهذا يراعى فيه زمن ورودها ، أو وصول يدي اليها اذا كانت عندي ، فليس في تقديمها وتأخيرها نظر الى فاضل ومفضول ! والثاني . ما تكتبه الآنسة (مي) ، وأنا أعرف كثيرين من الذين لهم الكعب الأعلى في الانشاء يجلّون قدرها ويمدحونها .

ولو كان غيره لأغفل الجواب عما يتصل بأسلوب (مي) لأنها كانت تتمتع بشهرة عظيمة ، ولها منزلة كبيرة ، والكلام في مثل ذلك يسوءها ولا ريب ، وهو لا يرضى بذلك ولكن انصافه غطى على ذلك كله .

ويشاء ربك أن يؤيد رأيي في أسلوب (مي) بدليل آخر أبداه الدكتور يعقوب صرّوف نفسه بعد ذلك بربع قرن فقد نشر الأستاذ طاهر الطناحي في جزء شهر أكتوبر سنة ١٩٤٨ من مجلة الهلال ، أن الدكتور يعقوب صروف قال في رسالة الى (مي) أنها تفكر بلغة أوروبية قبل أن تعبّر عن رأيها بالعربية .

وبعد هذا الكتاب بزمن غير قصير أتيحت لي فرصة طيبة زرت فيها الدكتور يعقوب صروف ، وكان مما جرى به سياق الحديث معه أن ذكر ما كان قد دار بيننا من قبل عن أسلوب (مي) وكيف أنني أقوى على الجهر بما قلت ، وأنفرد بأن أستعلن به وحدي ، على حين أنها قد بلغت أوج مجدها الأدبي ! وان العلماء والكبراء يغشون دارها ، ويتسابقون الى زيارتها ويتزاحمون على موائدها وأجمعوا على فضلها ! فقلت لـه : ان هذا كله لا يجدي أمام الحقيقة . والاجماع الذي ذكرته لا يعتد به لأنه اجماع (عاطفي) ! وان كل من يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض ، وألوان دلالتها ، لا بد أن يرى في أسلوب (مي) مثل ما رأيت ، وأنت نفسك بعلمك وفضلك قد وافقتني على ذلك » — واستطرد من ذلك فسألني عن دراستي للأدب العربي ، ومن أي معهد تخرجت فقلت له : لقد تخرجت من معاهد الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه وابن خلدون وغيرها من المعاهد القديمة ، ومن معاهد جمال الدين الافغاني والامام محمد عبده وحسين المرصفي وسواها . ولا أستطيع أن أحصي كل المعاهد التي تخرجت منها قديما وحديثا — وكلها بعيدة عن المعاهد الرسمية !

وهنا تصدّى لي أحد الجالسين معنا — غاب عني اسمه الآن — وكان مجلس صرّوف يغص دائما بكبار العلماء وقادة الفكر — وأظنه كان سوريا — وقد رآني أغطي رأسي بعمامة فقال : ألم تدرس الأدب في الأزهر ؟ فأجبته : كلا .. ان الأزهر ليس فيه أدب ، ولا يميل الى دراسة الأدب .. ولعلك قد قرأت ما ذكره (المنفلوطي) في (نظراته) من أنه كان يخفي ما يكون معه من كتب الأدب عندما يدخل الأزهر ليتلقى دروسه خشية أن يناله من وراء ذلك أذى !

ومن أجل ذلك فانك تجد أن هذا المعهد العتيق على طول عمره لم يتخرج منه كاتب ولا شاعر ، وكل كتاب العصر وشعرائه الكبار من غير الأزهر .

وما كدت أنتهي من قولي هذا حتى بدا التأثر والحسرة على الحاضرين وتولاهم العجب الشديد ! أما الدكتور يعقوب صرّوف فقد اكتفى بأن هزّ رأسه وابتسم !

على اننا نرجو للأزهر في عهده الجديد أن يعنى بدراسة الأدب العربي دراسة كاملة ■

(١) تجد النص الكامل لهذا الكتاب على الصفحة ٩٣ من كتاب (رسائل الرافعي) الذي نشرناه في سنة ١٩٥٠ .

نداء

نظرا لحاجة مكتبة « قافلة الزيت » الشهرية الى نسخ من أعدادها القديمة ، فان هيئة التحرير ترجو من قرائها الكرام ممن تتوفر لديهم نسخ اضافية منها يمكنهم الاستغناء عنها أن يبعثوا بها مشكورين الى القافلة التي ستقابل هذه اللفتة بتقديم هدايا رمزية .

والقافلة اذ تتوجه بهذا النداء الى قرائها الأعزاء ، فانها تتطلع بثقة واخلاص الى تعاونهم وتجاوبهم معها في هذا المضمار .

الى رحمة الله

فقد عالم الأدب العربي قبل بضعة أسابيع اثنين من رواد الفكر والأدب وقفا حياتهما على خدمة العلم والمعرفة . وهذان الرائدان هما الدكتور محمد مظهر سعيد والدكتور أحمد فؤاد الأهواني اللذان تركا وراءهما ذخيرة نفيسة من التآليف أثريا بها المكتبة العربية .. وقد أسهم الأديبان الراحلان ، لسنوات طوال ، في تزويد القافلة بالكثير من انتاجهما القيم المتسم بطابع الأصالة والعمق .. تغمدهما الله بواسع رحمته وجزاهما خيرا عما أسدياه للعلم من خدمات جليلة .

التكيف البشري

بقلم الدكتور فاخر عاقل

بين الجمادات والأحياء فرق واضح كبير ، فالمؤثرات المختلفة حين تقع على الجمادات تستقبلها هذه الجمادات بشكل سلبي ، ولا تستطيع أن تتدخل في عملها أو أن تغيرها . ومعنى هذا انك اذا صببت حامض الكبريت على قطعة كلس ، في أي زمان أو أي مكان فان الكلس يتفاعل معه بصورة حتمية .

والجماد لا يستطيع الا أن يقوم بما تقتضيه خصائصه ، فاذا تعرض الحديد للحرارة انصهر عند بلوغ الحرارة درجة معينة . وهذا صحيح عن جميع المؤثرات الطبيعية والفيزيائية والكيماوية .

أما في عالم الأحياء فالأمور تختلف ، سواء أكان الحي نباتا أم حيواناً أم انساناً . والأحياء ، بصورة عامة ، تستقبل المؤثرات ، وتتدخل في عملها بمقدار يختلف باختلاف درجة الحي في سلم التطور .

فالنباتات تتدخل تدخلا بسيطا ، ومن ذلك ما يدعى بحادثة الانتحاء (Tropism) أي اتجاه النبات نحو مصدر النور ، حين يعرض له . واذا ما ارتفعنا في سلم التطور ونظرنا في الحيوانات وحيدة الخلية « الاميب » رأينا ان الحيوان أكثر استجابة للمؤثرات من النبات وأكثر تدخلا في عملها ، بدليل انك اذا وضعت « الأميب » في وسط يحوي مادة حامضة لاحظت انه ينكمش ويبتعد.

فاذا ارتفعنا في سلم التطور نحو الحيوانات العليا وجدنا ان الحيوان يستقبل المؤثرات الواقعة عليه بشيء من الفهم والادراك ، ويستجيب لها بشيء من الذكاء والعقل .. فالكلب مثلا يستقبل الغريب بالنباح ضده والهجوم عليه ، في حين يستقبل صاحبه بالتودد له والتمسح به .

واذا ما وصلنا الى الانسان – أعلى المخلوقات في سلم التطور – وجدنا انه يستقبل المؤثر على نحو يختلف باختلاف الموقف ، واختلاف الشخص ، واختلاف الظرف ، الى آخر ذلك من العوامل الكثيرة التي لا حصر لها .

فالكلمة التي تصدر عن الأب يختلف تأثيرها عن الكلمة ذاتها حين تصدر عن الابن ، والفعل الذي يصدر عن صديق يختلف تأثيره عن الفعل ذاته حين يصدر عن عدو ، وما يقال بلهجة معينة يفسر تفسيراً مختلفاً عما يقال بلهجة أخرى.

وفي كل الأحوال فان أهم فرق بين الجمادات والأحياء هو ان الأولى تتلقى المؤثرات ، ولا تؤثر فيها ، أو تتدخل في عملها ، في حين ان الأحياء تحاول أن تكيفها لصالحها ، ويختلف هذا التدخل باختلاف مستوى التطور ، حتى يبلغ الأمر ذروته عند الانسان .

السلوك الموروث والسلوك المكتسب

واذا تركنا الجمادات جانبا ، ونظرنا في سلوك العضويات الحية ، ولا سيما الحيوانات ، وجدنا ان سلوكها على نوعين : السلوك الفطري الموروث ، والسلوك المكتسب أو المتعلم .

فالسلوك الموروث سلوك يولد مع المخلوق ، وهو قادر على القيام به دونما حاجة الى تعلم أو تعليم . فالطير يطير ، والنحل يعمل في جني العسل أو بناء الخلية دون حاجة الى تعلم أو تعليم ، ذلك بأن الطير قادر على الطيران ، ولو عزل عن باقي أفراد جنسه منذ ولادته ولم يعلم الطيران ، وفئات النحل تقوم بوظائفها المختلفة دون أن تعلم كيف تقوم بهذه الوظائف .

وأنت اذا نظرت في سلوك الانسان وجدت ان جسمه يقوم بأفعال حيوية مثل الهضم ، والتنفس ، ودوران الدم ، وهي أمور يقوم بها الجسم تلقائيا دونما تعلم ، كما وجدت عنده أفعالا مثل حركة بؤبؤ العين ، والعطاس ، والفواق ، وهي أفعال لا تحتاج الا الى قدر يسير جداً من التعلم . ثم وجدت عنده أفعالا أساسها جسدي فيزيولوجي مثل الأكل ، والشرب ، واخراج الفضلات ، هي أفعال أساسها موروث ، ولكنها خاضعة

للتعلم والتطور والتغير . كما وجدت عنده أفعالا مثل الميل الى التجمع ، وحب التملك ، وحب التفوق ، وهي أمور يشك العلماء في أن تكون موروثة بالمعنى البيولوجي ، ويرجحون وراثتها عن العرف الاجتماعي . ووجـــدت أخيراً أفعـالا وتصرفات تتصل بهذه الأمور السالفة الذكر ، ولكن الطابع الغالب عليها شخصي فردي ، وهي ، وان كانت ذات أصل بيولوجي أو اجتماعي ، فانها الى الفردية والشخصية أقرب .

وهكـــذا نستطيع القـول بأن السلوك الحيـواني والسلوك الانساني يتشابهان في أن بعض مظاهرهما موروث ، والبعض الآخر مكتسب . والفرق بين الانسان والحيوان في ذلك ان الموروث عند الحيوان أغلب ، في حين ان المكتسب عند الانسان أوضح .

التعـــــلم

القدرة على الاكتساب نسميها القدرة على التعلم . والحق ان قدرة المخلوق على التعلم تـزداد بازدياد ارتفاعه في سلم التطور ، فالقرد أقدر على التعلم والاكتساب من القط ، والحصان أقدر على التعلم مـن السمكـة ، والانسان أقـدر جـميـع المخلوقات على التعلم .

وينبه العلماء الى أن القدرة على التعلم تعتمد على البناء العصبي للمخلوق ، فكلما ازداد تعقـد الجملة العصبية ، وتطور تركيبها ، زادت قدرة المخلوق على التعلم . والجملة العصبية عند الانسان هي أعقد الجملات العصبية بين المخلوقات وأكثرها تطوراً .

وهذه القدرة المتزايدة على التعلم هي في الوقت نفسه مصدر تفوق الانسان على الحيوان ، وهي أيضا سبب ضعفه في الفترة الأولى من حياته لطول طفولة الانسان بالنسبة لطفولة الحيوان .

ونحب أن نشير هنا الى ان هذه القدرة على التعلم هي أساس التكيف البشري ودعامة التربية والتعليم ، ذلك بأنه بدون هذه القدرة على التعلم لا يستطيع الانسان أن يتقدم ويتطور ويتكيف . كما نحب أن نشير الى ان هذه القدرة تكون كامنة في الانسان ، وعليه أن يظهرها وينميها ويفيد منها في تقدمه ورقيه والسير بعالمه نحو ما هو أفضل .

الطـفولـــة

الفترة التي تمضي بين ولادة المخلوق وبين انطلاق الوليد الجديد لمواجهة معترك الحياة الحقة تسمى « طفولة » . فالحيوانات الدنيا قادرة على مواجهة الحياة ومتطلباتها منذ اللحظة الأولى للولادة ، وهي لا تحتاج الى تعلم واكتساب ، وانما ترث ما تحتاجه لتحقيق مطاليبها . وأما الحيوانات العليا فتحتاج الى بعض الوقت لتلقي بعض التعليم البسيط الذي يقوم به الوالدان ، كلاهما أو أحدهما كي تستطيع مواجهة الحياة منفردة .

واذا أمعنا النظر لاحظنا ان مدة الطفولة تزداد بارتفاع المخلوق في سلم التطور . وهذا هو السبب في أن الطفولة البشرية هي أطول الطفولات ، حيث تمتد سنوات عديدة يزداد طولها بازدياد التقدم البشري ، فكلما تقدم الانسان في حضارته ، وارتقى ، طالت طفولة أجياله الناشئة . وهذا صحيح في كل زمان وكل مكان ، حتى اننا نلاحظ ان الطفولة اليوم في المجتمعات الراقية تبلغ نحو ربع قرن . فالشاب في تلك المجتمعات لا ينزل الى معترك الحياة الحقيقي قبل أن يكمل تعليمه الجامعي وينال الاجازات العالية . وفي هـــذه الأثناء يكون مشغولا بالتعلم واكتسـاب الخبرات التي تجمعت لدى مجتمعه ، كما يكون عالة على أهله ومجتمعه بغية تهيئته لحياته المقبلة خير تهيئة . والمجتمع يكون شأنه في هذا شأن الذي يستثمر ماله في مشروع صناعي أو تجاري ، ومن هنا كانت الطفولة والشباب والأجيال الصاعدة هي رأس مال الأمم .

واذا ذكرنا ان العمر المتوسط للانسان يبلغ ستين عاماً ، وان نحو نصف هذا العمر ينقضي في الاكتساب والتعلم ، أدركنا أهمية الطفولة البشرية ومعناها .

وهنا لا بد لنا من الانتباه الى بعض الأمور . وأولها كون الطفولة عند الشعوب البدائية قصيرة الأمد ، فالطفل البدائي يطالب بالقيام بأعمال تعود على المجتمع والأهل بالفائدة في عمر قد لا يتجاوز السابعة أو الثامنة . والفتاة تطالب بالقيام بأعمال في البيت والحقل أو غير ذلك وهي ما تزال في ربيعها السابع أو الثامن .

وثانيها اننا اذا تركنا المجتمع البدائي وانتقلنا الى المجتمع المدني وجدنا فرقاً بين الأسر المحدودة الدخل والأسر الغنية ، فالطفل في الأسرة المحدودة الدخل قد ينتزع من طفولته ليطالب باداء أعمال وخدمات تعود عليه وعلى أسرته بشيء من النفع المادي ، في حين ان المجتمع الغني يسمح لأطفاله بطفولة قد تمتد الى وقت متأخر من العقد الثالث من العمر .

والأمر نفسه صحيح عن الفرق بين الأسرة المحدودة الثقافة والأسرة المتعلمة ، فالأسرة المحدودة الثقافة لا ترى جدوى لطول فترة الطفولة ، وتطالب أطفالها بأن ينطلقوا الى الحياة في سن مبكرة ، في حين ان الأسرة المتعلمة أو العارفة لقيمة التعليم تمنح أطفالها مدة أطول ينفقونها في التعلم والاكتساب والتهيؤ لمقبلات الأيام .

وقل الشيء نفسه عن المجتمعات والشعوب والأمم ، حتى لنستطيع أن نقول ان رقي الشعب اليوم يقاس بطول مدة طفولة أولاده . وان لتزايد الخبرات البشرية واتساع آفاق المعرفة وتشعب مجالات الاختصاص أثر كبير في ذلك ، فالانسانية في هذا انما تهيء أجيالها الصاعدة لحياة أفضل تتميز بمزيد من المعرفة والخبرة والاتقان . وهكذا فاننا نلاحظ ان الانسان الذي زوده الخالق ، جل وعلا ، بقدرة كبيرة على التعلم ينفق في الغالب شطراً كبيرا من حياته في تلقي العلم والخبرة والمعرفة ، لينقل ، هو بدوره ، لأجياله اللاحقة خبرات ومعارف أكثر كمية واتقاناً .

التكـيّف

وبعد أن أشرنا الى حقيقة التعلم والاكتساب وطول الطفولة البشرية ننتقل الى حقيقة أخرى تعتبر ركيزة من ركائز التربية وأساساً من أسس الحيـــاة النفسية ، وهـــي عمليـــة التكيف (Adaptation) .

ان الانسان القادر على التعلم والاكتساب والانسان الطويل الطفولة يواجه الحياة وما فيها من

مؤثرات طبيعية وفيزيائية وكيميائية واقتصادية واجتماعية وسواها من المؤثرات الأخرى ، وفق حاجاته ووفق طبيعته وقدراته ، أو يحاول أن يتكيف معها وفق متطلباتها وشرائطها وظروفها . فاذا نجح في هذا وذاك عاش ونما وتطور ، والا كتب له الانقراض والهلاك . والأمر صحيح بمجمله عن الحيوانات والنباتات والمخلوقات كلها ، فالعضو الذي يجد في محيطه ما يحفظ بقاءه يبقى ويكرر ذاته . فاذا لم يجد في هذا المحيط مطالبه وحاجته لجأ الى تكييف ذاته وفق شروط ذلك المحيط وظروفه . فاذا وفق عاش ونما وتطور ، والا هلك وانقرض .

وتعتبر عملية التكيف البشري جوهر الحياة النفسية وأساس العمليات التربوية ، ذلك بأن الحياة النفسية والعمليات التربوية كلاهما تكيف وتكييف . فحين يولد الطفل تتلقفه أسرته وتعلمه طرائق في الحفاظ على بقائه ، ونموه ، وتخليد نوعه الانساني ، وتحرص على أن تعلمه لغتها ، وأن تنقل اليه طرائقها في مواجهة الحياة ومفاهيمها عن الحياة والمجتمع والدين والكون والمثل الاخلاقية وسواها ، وبذلك تضعه في قالب حيوي وفكري واجتماعي معين .

ثم يخرج الطفل من اطار الأسرة الى اطار مجتمع أوسع ، مثل المدرسة ، والشارع ، والنادي ، والمعبد التي تحمل اليه بدورها مفاهيمها وطرائقها ومثلها وعاداتها وتقاليدها ، مما يتأثر به الطفل وينطبع بطابعه .

وقد يخرج الطفل أو الراشد من قريته أو حيه الى المدينة ، ومن مدينته الى مدينة أخرى ، أو من وطنه الى وطن جديد ، فيتأثر بما في المجتمعات الجديدة من مفاهيم وطرائق وعادات ومثل .

وهكذا نرى ان الانسان ، العامل دوما على الحفاظ على بقائه ، مضطر لمواجهة المحيطات المختلفة . على انه لا يقف من هذه المحيطات موقف المتلقي المنفعل فحسب ، ولكنه يحاول أن يقف منها جميعاً موقف الفاعل المؤثر ، فالحرارة اذا اشتدت خفف الانسان ملابسه واستعان عليها بوسائل اصطنعها ، كالمروحة ومكيف الهواء والثلاجة وغير ذلك من وسائل ، أما اذا انخفضت درجة الحرارة فانه يستعين عليها بوسائل أخرى اصطنعها أيضاً .. وقل الشيء نفسه عن كل عامل من العوامل المختلفة ، كالعوامل الاجتماعية ، وعوامل العمل والصحة ومختلف وجوه الحياة . والانسان في هذا حريص على أن يحفظ بقاءه بالشكل الأنسب . ومن هنا كان قولنا بان لب الحياة النفسية هو التكيف ، وجوهر العملية التربوية هو الاعانة على التكييف والتكيف .

واذا نظرنا الى عملية التكيف بحد ذاتها لاحظنا انها الاطار الذي يحتوي الحياة البشرية الفردية والحياة الاجتماعية . وعلى هذا فما الحياة النفسية الا تكيف متصل ، وما العملية التربوية الا المحرك المنظم لعملية التكيف . والتربية الحديثة لم تعد أمراً وفرضاً بقدر ما أصبحت تمكيناً للمتربي ، عن طريق تنمية مداركه وصقل عاطفته وشحذ ارادته ، من أن يتكيف هو نفسه ، وأن يكيف محيطه هادفاً في ذلك كله الى التقدم نحو ما هو أفضل .

صِفَاتُ التَّكَيُّفِ البَشَرِيّ

لو اردنا أن نصف التكيف البشري لقلنا ان صفته الأولى هي « المرونة » . والواقع ان الانسان حين يولد يزوده المجتمع بخبراته وطرائقه في العيش ، كما يزوده بمعارفه ووسائله ، ثم يخرج الانسان الى الحياة ويخضع لمؤثرات المحيط ويتحتم عليه أن يستجيب لهذه المؤثرات . ولما كانت الحياة نامية متطورة متغيرة كان على الانسان أن ينمو معها وأن يتطور وتتغير طرائقه وأساليبه في الحياة ، لتغيير هذه الحياة .

ومن هنا كان حرص التربية الحديثة على تزويد المتعلم بالقدرة على الافادة من معلوماته في مواجهة الظروف الطارئة والأحوال المستجدة ، وكان حرصها على أن تلقن الطالب المعلومات والمعارف ، وأن ترشده بالاضافة الى ذلك كيف يتعلم ، وتترك له أن يتعلم بنفسه ، وتساعده على تكوين شخصيته ، وعلى تمكينه من اتخاذ المواقف الصحيحة ، وتنمية قدرته على مواجهة الظروف الجديدة .. فيتكيف واياها ، ويبتكر لها ما تحتاجه من استجابات وتصرفات وأفعال .

والصفة الأخرى من صفات التكيف البشري هي أن عملية التكيف « مستمرة » ، تبدأ ببداية الحياة ، وتنتهي بنهايتها . والحق ان الحياة البشرية تبدأ في رأي علماء النفس والتربية والاجتماع والانسان نطفة لم يولد بعد ، ذلك بأن الانسان نتاج وراثته البيولوجية والاجتماعية ، فهو لا يكاد يبصر النور حتى يتحتم عليه أن يكيف نفسه مع مقتضيات الحياة الجديدة ، ثم تستمر هذه العملية يوماً بعد يوم ، ولحظة بعد لحظة ، الى أن تخمد شعلة الحياة . ولذلك كانت عملية التكيف عملية مستمرة ملازمة للوجود البشري .

والصفة الثالثة من صفات التكيف البشري هي « التغير والتبدل » . ان هذا التكيف يتسبب عن تغير ظروف الحياة ويؤدي الى تغير في صفات الذات ، ثم ان تغير ظروف الحياة وتغير صفات الذات يتبادلان الأثر والتأثير ، فما كان منهما سبباً يصبح نتيجة ، والعكس بالعكس . والواقع ان اليوم غير الأمس ، وهو غير الغد ، وان طبيعة الحياة هي التغير والتبدل ، وان الانسان يعمل على تغيير ظروف الحياة ، ثم يكيف نفسه مع الظروف الطارئة الجديدة بحيث تناسب أهدافه وحاجاته ومطاليبه .

والصفة الرابعة من صفات التكيف البشري هي أن هذا التكيف عملية « فردية واجتماعية » في الوقت ذاته . وواقع الحال ان التغير يصيب المحيط الطبيعي والاجتماعي ، كما يصيب الفرد أيضا ، فالمجتمع مكون من أفراد ، وعملية التكيف انما تقع على أفراد ، كما تقع منهم . وبما أن الأفراد يكونون المجتمعات فان لعملية التكيف صفة اجتماعية أيضاً . وهكذا فأنت اذا اعتبرت الاكتشافات والاختراعات والعلوم والمعارف بعض مظاهر التكيف البشري ، فلا بد لك من أن تعترف بأن التقدم العلمي تدين به البشرية للأفراد من جهة ، وتدين به للمجتمع من جهة أخرى ، ذلك بأنه لا بد للاختراعات والاكتشافات والتقدم العلمي من المناخ الاجتماعي العلمي المناسب . والخلاصة ، فان المرونة والاستمرار والتبدل الدائم ، والصفتين : الفردية والاجتماعية هي صفات التكيف البشري ، وهي الصفات التي يجب أن تتميز بها كل حياة نفسية سوية مزدهرة وكل عملية تربوية واعية ■

ساعة في الريف

للشاعر محمد علي السنوسي

ساعة في الريف في حضن السهول ... والرمال والسمر والأفق الكحيل
والفضاء الرحب مبسوط المدى ... والهواء الطلق رفاف الذيول
بين أرض وسماء وربىً ... وزهور وغدير وخميل
تلك دنيا سرح أفاقها ... حرة من كل قيد وكبول
أنا أشتاق اليها كلما ... سئمت نفسي أحاديث الفضول
طبعت في النفس منها صورة ... حية تملأ قلبي وسيولي
ساعة في الريف في ظل الشذى ... بلسم الهم وترياق العليل
حيث نور الشمس في آصالها ... كسنا القبلة في الخد الأسيل
والسنا الشفاف في أجوائها ... لوحة كبرى من الفن الأصيل
والصبا النشوان في أفيائها ... لاهيا يمرح كالطفل الجميل
تلك دنيا أنا منها نفحة ... وشعاع هائم بين الحقول
يا ربى الوادي ويا كثبانه ... رددي صوتي وغني بهديلي
وامنحيني ساعة صافية ... من صفاء الروح والصمت الجليل
ان في صمتك معنى رائعا ... من تهاويمي وبحران ذهولي
أي حسن فيك جذاب الرؤى ... عبقري الفن روحي الأصول
شاع في أسرار قلبي وجرى ... يغمر النفس بفيض سلسبيل
يا ربى الوادي ويا كثبانه ... غابت الشمس وقد آن قفولي
أنا أودعتك سري واثقا ... أنني أودعت خلي وزميلي
لا تقولي شاعر لم يحتمل ... وحشة الليل وظلماء الأفول
فر من دنياي لما أظلمت ... ناسيا نهري وزهري وأصيلي
أنا أحيا فيك طيفا وشذى ... وندى في ظل واديك الظليل

صِيانة آبار الزَيْت والماء

ض آبار الزيت في المملكة العربيّة السّعوديّة لِصيانة دوريّة مُنتظمة تشمل إجراء فحوص دقيقة متنوّعة بُغية الحفاظ على مُستوى الضغْط فيها، وذلك لِضمان اسْت

قّ الزيْت منْها . ولما كان هذا الأمْر على جانِبٍ كبير من الأهميّة ، أوجدت شركة الزيت العربية الأمريكية (ارامكو) جهازاً خاصّاً يضْطلع بكافّة خدمات الصِّيانة الضروريّة لآ

ت المنتجة، وآبار حقْن الماءِ والغاز، وآبار مُراقبة ضغْط المكامن وآبار الماءِ الواقعة جميعُها ضِمْن منطقة الامتياز على اليابسة وفي المناطق المغمورة بمياه الخليج العر



المعروف أن الزيت المستخرج من حقول المملكة العربية السعودية يتدفق تلقائيا بفضل ارتفاع ضغط مكامن الزيت . ولكي يستمر الزيت في التدفق الى فوهة البئر فانه لا بد من المحافظة على هذه القوة الدافعة في المكامن ، اما بحقن الغاز ، أو بحقن الماء ، أو بهاتين الوسيلتين معا . وتتم عملية حقن الغاز في آبار خاصة تقع في المنطقة العليا للتركيب الجيولوجي للمكمن مما يؤدي الى دفع الزيت نزولا نحو الآبار المنتجة . وأما عملية الحقن بالماء فتتم في منطقة المكمن المزاح منها الزيت سابقا ، أو المحتوية على ماء التكوين الجيولوجي لطبقة المكمن عبر آبار خاصة ، مما يؤدي الى تحرك الزيت نحو الآبار المنتجة في الحقل . لهذا كانت مراقبة ضغط المكامن ذات أهمية كبيرة ، وبالنسبة للمحافظة على مستوى الانتاج فيها . هذا بالنسبة الى الحقول ، أما بالنسبة الى الآبار فانها تحتاج الى صيانة دورية منذ بدء انتاجها ، وذلك تبعا لتأثيرات خصائص المكمن ومميزاته ونوع تكويناته الجيولوجية ونوع زيته وطريقة الانتاج منه . على أن من أهم المصاعب التي يواجهها المسؤولون هو تآكل أنابيب تغليف الآبار الناجم عن تشقق طبقة الاسمنت المشادة حولها ، مما يسمح بتسرب الماء ونحوه الى الأنابيب ، فيجعلها عرضة للتآكل والعطب .

وتتطلب أعمال الصيانة وجود سجل كامل عن كل بئر يحوي كافة المعلومات الضرورية ، كتاريخ انجاز حفر البئر ، وعمقها ، والتكوين الجيولوجي الذي تنتج منه ، وأنابيب التغليف والانتاج المستعملة فيها وأحجامها ، والاصلاحات التي أجريت عليها منذ بدء انتاجها .

وتتضمن الأعمال الروتينية للصيانة وضع علامات على الطرق العامة تبين البئر أو الآبار الموجودة في منطقة ما ، وتثبت علامة على كل بئر تحمل رقم البئر والحقل الذي تتبعه ، بالاضافة الى تشحيم الصمامات المثبتة على فوهة البئر والتأكد من خلوها من الثقوب التي قد تسمح بتسرب الغاز أو الزيت منها . أما أعمال الصيانة الرئيسية فتتلخص فيما يلي :

تركيب عمود الاختبارات

Gin Pole Installation

يجري وضع عمود طوله ٣٠ قدما على كل بئر من آبار حقن الماء ، لاستخدامه كرافعة يستعان بها في اجراء بعض الاختبارات اللازمة على البئر ،

السيد سعود سويلم رئيس وحدة اختبار الآبار يستعرض مع المشرف علي منصور الأدوات الخاصة بفحص حرارة بئر الزيت ومستوى الضغط فيها .

اذ بواسطته يمكن انزال معدات الاختبار واخراجها على سلك يمر بالبكرات المثبتة عليه .

اختبار الحيز بين أنابيب التغليف

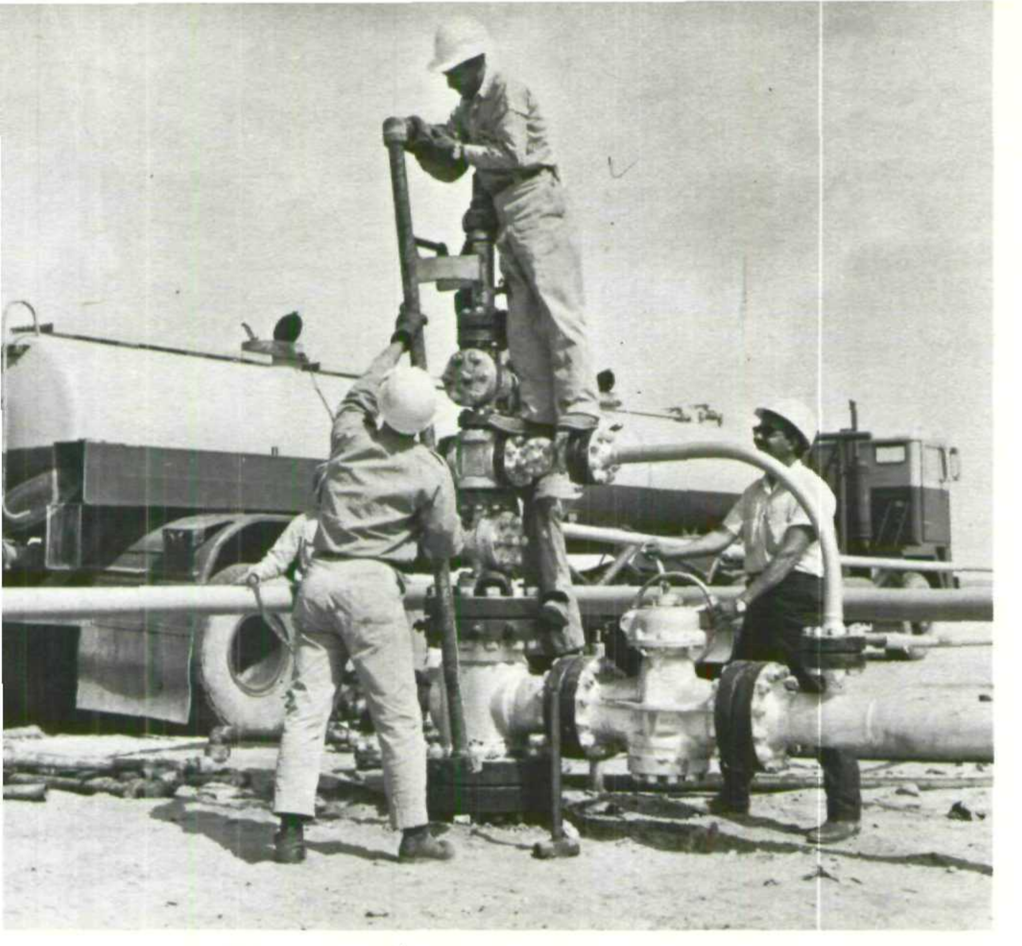
Annulus Survey

تغلف جدران البئر بأنابيب خاصة يجري تثبيتها بالاسمنت من القاع الى السطح ، وذلك للحيلولة دون تسرب أي من السوائل الغريبة الى البئر . ولكن قد يحدث أن يتشقق الاسمنت فتتسرب السوائل عبره ، مما يجعل أنابيب التغليف عرضة للتآكل ، وبالتالي تتجمع هذه السوائل أو الغازات على نحو يهدد بحدوث انفجار في البئر . ولتفادي مثل هذه الأخطار يجري فحص الحيز الحلقي المحشو بالاسمنت مرة في العام على الأقل ، وذلك بتركيب مقياس للضغط وصمامين ، أحدهما لمقياس الضغط والآخر للتفريغ ، على سطح البئر قرب صمام الحيز . ويجري الاختبار بقراءة الضغط المبدئي وتسجيله ، ثم فتح صمام التفريغ لأخذ عينة منه ، وارسالها الى المختبر لاجراء الفحوص الضرورية عليها . وبعد ذلك يغلق صمام التفريغ ويفتح صمام الحيز وبالعكس لتسجيل معدل هبوط الضغط وارتفاعه في كلتا الحالتين .. يكرر ذلك مرات عديدة ولمدد معينة يحددها مهندس الانتاج . ويتطلب هذا الاختبار امعانا في التأكد من صلاحية الاسمنت وأنابيب التغليف ، وضخ كمية من الماء في الحيز ، ثم تسجيل الزيادة أو النقصان في الضغط في مدة لا تتجاوز ٣٠ دقيقة في معظم الحالات ، وكذلك مراقبة الضغط في الحيز الآخر أثناء عملية الضخ . ويستعاض عن الماء أحيانا باستعمال النيتروجين المعبأ في أسطوانات لسهولة استعماله .

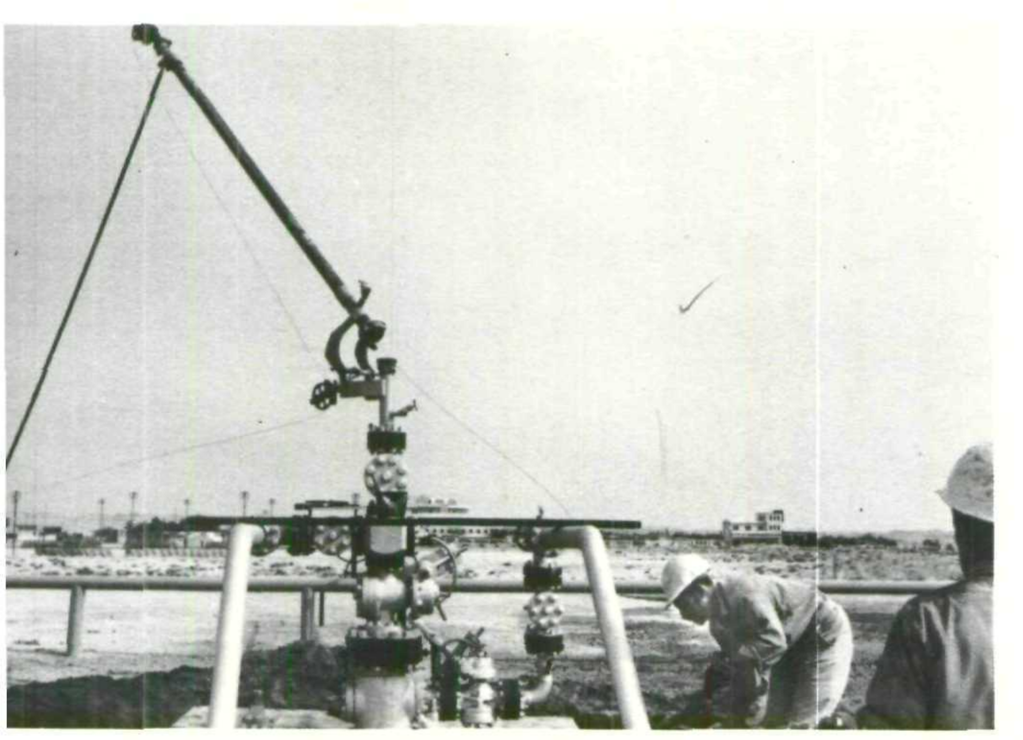
معالجة آبار الزيت بالحامض

Well Acidization

من النواحي المهمة في الانتاج تنشيط التكوينات الأرضية المنتجة للزيت من أجل رفع طاقة الآبار الانتاجية . والمعالجة بالحامض هي عملية تستخدم بصورة رئيسية في المكامن ذات الصخور الجيرية (الكلسية) ، اذ يدفع الى التكوين محلول من حامض « الهيدروكلوريك » الذي يتم تركيزه باضافة مواد كيميائية معينة اليه بنسبة معينة تتوقف على عدة عوامل منها حرارة المكمن ونوع وطبيعة صخوره ونوع الزيت . وحينما يتفاعل هذا المحلول مع الصخور الجيرية تتسع مسامات التدفق ، فيتحرك الزيت من المكمن نحو البئر .



نفر من وحدة خدمات الحقول أثنـاء قيامهم بتركيب التوصيلات اللازمة على فوهة بئر للزيت لمعالجتها بالحامض .

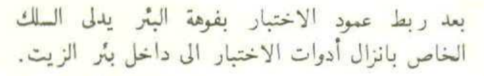


المشغل سالم المري يثبت طرف السلك بأدوات الاختبار تمهيدا لادخالها في عمود الاختبار .



المشرف عبد الرحمن درويش يساعد أحد المشغلين على تفكيك أدوات الاختبار لاستخراج الصفائح الخاصة بتسجيل الحرارة والضغط .





بعد ربط عمود الاختبار بفوهة البئر يدلى السلك الخاص بانزال أدوات الاختبار الى داخل بئر الزيت.

وتتم هذه العملية بمد أنابيب وتوصيلات من صمام البئر العلوي الى مضخة ضخمة مصممة خصيصا لهذا الغرض ، بالاضافة الى مد خط أنابيب لحرق الزيت بعد انتهاء عملية المعالجة بالحامض لتنظيفه من الماء والرواسب . ويبدأ ضخ الحامض في أنابيب الانتاج الى قعر البئر ، ثم يدفع الديزل أو الكيروسين لازاحة الحامض من أنابيب الانتاج الى صخور المكمن حيث يتم التفاعل الكيماوي مع تلك الصخور . وبعد مدة محددة من عملية التفاعل هذه ، يفتح البئر ويحرق الزيت الناتج الى أن يتأكد من خلوه من رواسب الحامض والشوائب الأخرى ، وذلك بأخذ عينات منه لفحصها في المختبر .

فحص درجة حرارة البئر والضغوط الجوفية

Temperature & Pressure Survey

يعتبر هذا الفحص من أهم الفحوص الروتينية التي تجرى سنويا على آبار الزيت ، ويتم بواسطته قياس الحرارة والضغط في البئر على أعماق مختلفة سواء أكانت البئر مغلقة أو أثناء جريان الزيت منها . وتتألف أدوات الفحص من جهاز لقياس الحرارة وآخر لقياس الضغط مزودين بصفائح معدنية سوداء ، وأبر حادة تحفر خطوطا على الصفائح تبين الضغط والحرارة . وساعات موقوتة تتمشى مع ما تتطلبه عملية انزال الأدوات واخراجها من وقت .

وتتم العملية بوضع كل من مقياس الحرارة أو مقياس الضغط في أسطوانة مع ما يتبعه من الأدوات الأخرى ، ثم وصلهما معا ، وربطهما بطرف سلك فولاذي ، وادخالهما في ماسورة تنزل في البئر عبر صمام التفريغ في تركيبة فوهة البئر الواقع فوق صمام البئر العلوي . وكلما وصلت الأدوات الى عمق يبينه عداد السلك انتظر العمال مدة معينة تكفي لتسجيل الحرارة أو الضغط على الصفائح ، ليستأنفوا بعدها عملية الانزال حتى يصلوا الى آخر عمق يحدده برنامج الصيانة . وأهمية هذا الاختبار هي مراقبة الضغط والحرارة في قيعان الآبار وفي المكامن . وأما بالنسبة لعملية قياس درجات الحرارة عند أعماق مختلفة من البئر فمن شأنها مراقبة حالة أنابيب التغليف والكشف عما اذا كانت هناك سوائل متجمعة خلفها ، فالمعروف أن درجة الحرارة تتناسب طرديا مع عمق البئر ، فاذا حدث أن انخفضت درجة الحرارة على عمق معين يعرف من ذلك أن هناك احتمال وجود ماء خلف أنابيب التغليف أو أن فيها ثقوبا .

قياس مستوى السائل

Measuring Fluid Level

وتتلخص هذه العملية في انزال أدوات دقيقة الى أعماق آبار حقن الماء وآبار مراقبة الحقول لمعرفة مستوى الماء فيها ليتمكن المهندسون من خلال ذلك من دراسة جميع الاحتمالات المرتقبة في المستقبل . كما يجري أيضا قياس أعماق الآبار ، وخاصة آبار حقن الماء لتقدير نسبة الرمل المتسربة الى البئر . ومن ثم يزاح الرمل بواسطة أنبوب مفتوح ذي صمام يدلى به في البئر على خط سلكي ، أو يضخ الزيت والماء ، أو بهذه الوسائل مجتمعة .

تنظيف باطن أنابيب الانتاج

Scraping

والغرض من اجراء هذا الفحص هو ازالة الرواسب الشمعية والاسفلتية التي يتركها الزيت على جوانب مجموعة أنابيب الانتاج في الجزء العلوي البارد من البئر ، وذلك بانزال محكة أو كاشطة (Scraper) عبر أنابيب الانتاج تعمل على تنظيفها .

فحص الآبار ذات الانجاز المزدوج

Dual Completion Wells

يجري هذا النوع من الفحوص على آبار الزيت المنتجة من طبقتين ، وتستخدم فيه أدوات فصل « Seperation Tools » لعزل طبقة عن الأخرى ، وأخذ عينات من زيت كلتيهما .

وهناك أعمال صيانة أخرى غير ما ذكر ، تشمل تثقيب أنابيب الانتاج ، وتركيب صمامات السلامة المتصلة بأنابيب الانتاج داخل البئر ، وذلك في الآبار الواقعة ضمن المنطقة المغمورة بالماء .

حفر آبار الماء

يستعمل لحفر آبار الماء جهاز من طراز ت – ١٢ (T—12) ، وهو جهاز صغير اذا ما قورن بأجهزة حفر آبار الزيت ، ولكنه لا يختلف عنها من حيث الأجزاء والمعدات . ويجري حفر آبار الماء في مرافق الشركة ومنشآتها طبقا لمواصفات يشملها برنامج مفصل تعده ادارة هندسة الزيت . وتصل أعماق هذه الآبار أحيانا الى ٨٠٠ قدم ، وذلك يتوقف على عمق التكوين الحامل للماء . وتعتبر الخبر ، والعروبة ، والعلاة من التكوينات الجوفية الغنية بالمياه العذبة .

عند الانتهاء من حفر البئر وتغليفها بالأنابيب الى عمق الطبقة الحاملة للماء ، تقوم فرقة الحفر بتركيب مضخة عليها تتناسب مع حجم أنابيب التغليف ، وعمقها ، ومنسوب الماء فيها . ومقدار الماء المزمع ضخه ، وتوفر الكهرباء في المنطقة أو عدم توفرها ، فالمضخات التي تدار بمحرك كهربائي هي مضخات جوفية ذات الغاطس « Submersible Pumps » . أما في المناطق النائية فيستعمل نوع من المضخات يدار بمحرك ديزل .

صيانة الآبار

تحتاج آبار الماء الى صيانة مستمرة لكونها تتعرض لدخول الرمال اليها ، وكذلك المضخات بأنواعها عرضة للتآكل والعطب . لهذا تجري معاينة الآبار والمضخات مرة في كل عام ، كما تجري أعمال الاصلاح والصيانة وفقا لما تقتضيه الحاجة . وتشمل صيانة آبار الماء عمليات النزح « Bailing » ، وتنظيف آبار الماء عامة وآبار مراقبة حقول الزيت خاصة ، وذلك بانزال معدات خاصة لجرف الرمال . وهناك عملية خاصة بالنسبة لبعض آبار الزيت التي لا يقوى ضغطها على دفع الزيت الى أعلى . وتتلخص هذه العملية في انزال ما يسمى بأكواب النزف « Swabbing Cups » الى باطن البئر لتجرف رواسب السوائل الثقيلة أو الأوساخ ، فيندفع الزيت خلفها ■

سليمان نصر الله

فيما يلي جدول يبين عدد آبار الزيت والحقن والمراقبة الواقعة ضمن منطقة امتياز أرامكو حتى مطلع عام ١٩٧٠ .

نوع الآبار	عدد الآبار
آبار زيت منتجة	٤٢٧
آبار زيت مغلقة	٦٦
آبار للمراقبة	٤٦
آبار حقن الغاز	٧
آبار حقن الماء	١٠٦
آبار حقن غاز البترول السائل	١

وفيما يلي جدول يبين عدد آبار ماء الشرب والمناطق الموجودة فيها حتى مطلع عام ١٩٧٠ .

المنطقة	عدد الآبار
الظهران	٢٠
بقيق	٣٢
رأس تنورة	٢٠
المدارس التي بنتها الشركة	١٤
سكة حديد حكومة المملكة العربية السعودية	٦
أعمال الحفر	٦
أعمال التنقيب	٢



فتح الغطاء العلوي لفوهة بئر الزيت بعد فتح صمام التفريغ لاطلاق الغاز المتجمع فوق صمام البئر العلوي .



اثنان من قسم خدمات الآبار يقومان بمعاينة محرك خاص بمضخات الماء الضخمة المستعملة في الآبار العميقة .

بعد ادخال أدوات الفحص في عمود الاختبار يجري وصل طرفها برأس بئر الزيت .

تصوير : شيخ أمين وحسن خضير

التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية

بقلم الاستاذ محمد عمر سعيد العامودي

دراسة

النظم القضائية أهمية لا تقل عن أهمية التشريع في كل مجتمع . واذا كانت الشرائع ضرورة للمجتمع ، فان تقريرها لا بد من أن يقترن بوجود أداة أو وسيلة تضمن تنفيذها لتأمين سلامة الحياة الاجتماعية وانتظامها ، وبوجود القضاء يتحقق للقواعد التشريعية أبرز خصائصها ، وهي صفة الالزام(١) .

ويقتضي الكلام عن التنظيم القضائي الرجوع الى بداية عهد التاريخ الاسلامي ، لتتبع مراحل القضاء فيه منذ نشأته ، وذلك لاستخلاص القواعد الرئيسية التي كان يقوم عليها ذلك النظام . وهذه المقدمة التاريخية ضرورة باعتبار أن النظام القضائي القائم في بلادنا اليوم انما هو امتداد لذلك النظام الذي كان قائما في الدولة الاسلامية عبر العصور ، وثمرة تطور طويل تصارعت فيه اعتبارات سياسية واجتماعية وقدمية ، غلبت عليها فيما بعد الاعتبارات الاسلامية (٢) .

الأدوار التاريخية التي مر بها نظام القضاء في التاريخ الإسلامي

لم يكن في المجتمع العربي قبل الاسلام سلطة تشريعية لسن القوانين وتقنينها . وانما كانت تسوده التقاليد والاعراف القبلية والعشائرية . وفي ظل ذلك الوضع كان القضاء ينحصر في يد رئيس القبيلة أو شيخ العشيرة ، يتولاه في داخلها بصورة تلائم حياتهم الفطرية . ولم تكن سلطة الرئيس أو الشيخ لتتعدى ذلك النطاق الضيق . أما في خارج القبيلة فقد كان السائد هو حكم القوة .

وعندما ظهر الاسلام تغيرت معالم المجتمع العربي ، فقد وضع هذا الدين الجديد أساسا لتوحيد المجتمع ، وأتى بفكرة الدولة والشورى ، واحترام الحريات ، والملكية الفردية ، وحسن الجوار وأصبح القضاء طبقا للوضع الجديد عملا عاما تمارسه الدولة ، وقد تولاه في أول الأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بنفسه ، فكان يقضي بين الناس بما ينزل عليه من وحي .

وبانتشار الاسلام واتساع رقعة دولته ، أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد عند عدم توفر النص . وما كان عليه الأمر في عهد النبي عليه السلام كان عليه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه . أما في خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه فقد اقتضت حال الدولة الجديدة ، بعد توسعها واتصالها بغيرها من الدول ، ادخال نظام تشريعي لحل المشاكل يقضي بتعيين قضاة ينوبون عن الخليفة ، أطلق عليهم لأول مرة اسم « القضاة » . وكان ذلك ايذانا بانبثاق قانون الفصل بين السلطات ، وهو القانون الذي نادى به القاضي الفرنسي المعروف « مونتسيكو » في القرن الثامن عشر ، والذي ما زال يطبق حتى اليوم على كافة النظم القضائية المعاصرة في بلاد العالم المتمدين .

وقد اتبع بقية الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، ومن جاء من بعدهم ، هذا السبيل ، فكان الخليفة يختار القاضي بنفسه ، أو يفوض الوالي أمر تعيينه .

وكان من بين التبعات العامة المنوطة بالقاضي فصل المنازعات ، واستيفاء الحقوق ، والاشراف على الأوقاف والقاصرين ، ومن كان في حكمهم ، وتنفيذ الوصايا ، واقامة الحدود وسائر العقوبات .

وكان من قواعد القضاء ، استقلال القاضي ، ووجوب الحكم طبقاً لقواعد الشريعة ، والتسوية بين المتداعين ، واعتبار الأصل براءة الذمة ، والزام المدعي بتقديم البينة على دعواه ، وتدقيق البينات المقدمة .

ويقسم رجال الفقه الاسلامي القضاء الى ثلاثة أقسام هي : ولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية الحسبة . وتتخذ ولاية القضاء مركزاً وسطاً بين ولاية المظالم وولاية الحسبة .

فولاية الحسبة نوع من القضاء المحدد يختص بقضايا التدليس في المبايعات وتطفيف الكيل ، والغش في الأسواق والمضايقة في الطرقات والمماطلة في تسديد الديون مع القدرة على ذلك . وللمحتسب الى جانب ذلك الحق في التعرض من تلقاء نفسه لما يختص به من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر دون ما حاجة الى رفع هذا الأمر اليه .

أما ولاية المظالم فهي أوسع من ولاية القضاء مجالا وأوسع مقالا ، فهي كما يقول الفقهاء : « قود المتظلمين الى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة . » ولا يتقيد قاضي المظالم في قضائه بين الأفراد بشكليات القاضي العادي ، وله الى جانب ذلك ولاية تأديب عامة ، حتى بدون رفع الأمر اليه بذلك .

وولاية المظالم — بالاضافة الى ذلك — نوع من القضاء الاداري ، اذ كان قاضي المظالم ينظر في الشكاوى التي يتقدم بها الناس من تصرفات المسؤولين ، كذلك كان يرجع اليه عندما يستعصي على القاضي الحكم في دعوى معينة .

ويلخص فقهاء الشريعة الاسلامية العلاقة بين القضاة وقاضي المظالم والمحتسب بقولهم : « ان

(١) و (٢) و (٣) « المرافعات المدنية والتجارية » — للدكتور أحمد مسلم .

النظر في المظالم موضوع لما عجز عنه القضاة ، والنظر في الحسبة موضوع لما رفه عنه القضاة . » وقـد اضطلع الحاجب — في زمن مضى — باختصاص قضائي واسع ، لا سيما في المعاملات التجارية .

ولم يكن القضاة — فيما مضى — تنتظمهم وحدة تنظيمية هي المحكمة . فالسائد في الفقه الاسلامي — كما يرى الباحثون هو شخصية القاضي ، أما فكرة المحكمة على النحو المعروف في النظام الحديث فيتسلمها الباحث دون أن يصل اليها نصاً .

والقضاء طوال مراحل تطور التاريخ الاسلامي كان يتخذ مظهراً واحداً من حيث الشكل . واذا كانت ثمة أوجه خلاف يمكن ذكرها في هذا الصدد ، فانها تبدو فيما تميزت به فترة عن أخرى نتيجة لظهور المذاهب الدينية المختلفة . فقد كان القاضي في العصور التي سبقت العصر العباسي يلتزم بتطبيق الكتاب والسنة وما يوحي اليه اجتهاده عند عدم توفر النص ، غير أنه في العصر العباسي ، ونتيجة لظهور المذاهب ، تلاشت روح الاجتهاد في الأحكام ، وأصبح القاضي ملزماً باصدار أحكامه وفق المذاهب . ففي العراق كان المذهب الشائع هو مذهب أبي حنيفة ، وفي الشام والمغرب ساد مذهب مالك بن أنس ، وفي مصر مذهب الشافعي . فاذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب القاضي عنه قاضيا يعتنق عقائد مذهب المتخاصمين .

وتميز العصر العباسي أيضاً بظهور « قاضي القضاة » الذي كان يقيم في حاضرة الدولة ، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار . وكان لكل ولاية قاض ، ثم أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب المختلفة ، فينظر كل منهم في النزاع على أساس المذهب الديني الذي يتبعه المتخاصمان .

المبادئ التي يقوم عليها نظام التقاضي في التاريخ الإسلامي

يمكن استخلاص الخصائص العامة لنظام التقاضي الاسلامي مما يأتي :

* يتولى القاضي سلطته بتقليد الخليفة ، فولايته تكون اذاً مستمدة من الولاية العامة .

* كان القضاء يقوم في الأصل على أساس الدرجة الواحدة ، فليست ثمة درجة ابتدائية ودرجة استئنافية ، غير أنه يمكن الاستفادة مما جاء به الفقهاء بصدد نقض القاضي لأحكام غيره ، واباحة ذلك في بعض المواضع ، وبصدد قيام المحكوم عليه بطلب فسخ الحكم عنه ، وجوازه أحياناً . أما من يقوم بذلك النقض للأحكام أو الفسخ فهو تارة القاضي الذي أصدر الحكم ، وتارة غيره ، وليس من الضروري أن يكون أعلى درجة منه ، وتارة قاضي القضاة وتارة الامام ، أو من يخلفه (٤) .

* يقوم القضاء في الأصل على أساس وحدة القاضي ، فـلا يتعدد القضاة عند النظر في الدعوى .

* جواز تخصيص القضاة ، اذ يجوز أن يكون القاضي عام النظر في خصوص العمل (٥) . وهو ما يعرف « بالتوزيع النوعي » أو « الاختصاص النوعي » في الفقه الحديث .

وتخصيص القضاة معروف في الفقه الاسلامي ، وقد عبر الفقهاء عن ذلك بقولهم : « واذا قلّد قاضيان على بلد ، على أن يرد الى أحدهما نوع من الأحكام والى آخر غـيره كرد المداينات الى أحدهما ومسائل الزواج الى الآخر فيجوز ذلك ... » (٦) .

كما أنه يجوز أن تكون قيمة النزاع هي ضابط اختصاص القاضي . وقد روى عن أبي عبد الله الزبيري أن قاضي المسجد بالبصرة كان يحكم في مائتي درهم وعشرين ديناراً فما دونها ، ولا يتعدى ما قدر له .

ولاية القاضي في الإسلام

قامت الدولة الاسلامية بتنظيم القضاء وادارته على اقليمها ، ولم يكن مناط سيادة الشريعـة الاسلامية في النظام الاسلامي مبنياً على فكرة التبعية السياسية للدولة ، وهو ما يعرف بالجنسية . وانما كان مناط هذه السيادة هو الدين الاسلامي نفسه . فالاسلام كان يقسم العالم الى قسمين :

دار الاسلام : وتضم البلاد التي يسود فيها الاسلام .

ودار الحرب : وتضم البلاد التي لم يعتنق أهلها الاسلام ، وان لم يحاربوا المسلمين . وأهل دار الحرب ممنوعون من دخول دار الاسلام ، الا اذا كانوا معاهدين أو استأمن أحدهم بأمان خاص .

وكان ضابط هذه السيادة يقوم على الأسس التالية :

* أن المسلم لا يخضع لغير القاضي المسلم ، وأن القاضي المسلم لا يقضي لغير المسلم الا بالترافع لديه .

* ان القاضي المسلم لا يحكم بغير أحكام الشريعة في الدعاوى التي ترفع اليه وتدخل في ولايته ، بصرف النظر عن ديانة الخصوم وتبعيتهم السياسية ، ومعنى ذلك أن ثمة تلازماً بـين الاختصـاص القضائـي والاختصاص التشريعي ، وأن الشريعة شريعة اقليمية يخضع لها كافة الأشخاص في دار الاسلام ، مهما كانت ديانتهم أو جنسيتهم ، ولكنها كانت تجيز لغير المسلمين الخضوع لشرائعهم الدينية في حدود كتلك التي تتعلق بالأنكحة والمهور وغيرها .. (٧) . ولقد كانت هذه القواعد بمـا انطوت عليه من مبادىء ، حائلا دون ظهور مشكلة تنازع القوانين في العالم الاسلامي حتى كان عهد الحكومات العثمانية (٨) .

القضاء في عهد الدولة العثمانية

كان الحجاز قبل الحكم العثماني يخضع لدولة المماليك البرجية . وكان المماليك يعملون بنظام تعدد المذاهب في القضاء . وفي ظل ذلك الحكم كان النظام يجيز للمدعي أن يرفع دعواه لأي من قضاة المذاهب الأربعة .

وقد دخل الحجاز في فلك الامبراطوريـة العثمانية دون حرب في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، وذلك حين سلم أمير مكة مفتاح الكعبة الشريفة للسلطان سليم العثماني وبايعه بالولاية والتبعية (٩) .

---

(٤) و (٥) و (٦) « الأحكام السلطانية والمرافعات » . للدكتور أحمد مسلم . (٧) و (٨) « القانون الدولي الخاص » للدكتور عز الدين عبد الله .
(٩) « البلاد العربية والدولة العثمانية » لساطع الحصري .

وقد أعاد العثمانيون نظام وحدة المذهب ، وجعلوا قاضي القضاة واحداً منهم ، أي حنفي المذهب ، على أن يكون له نواب من المذاهب الدينية الأربعة . وكان السلطان في عهد الدولة العثمانية يقوم بتعيين قاضي القضاة لمدة سنة واحدة أما قضاة الأقاليم فكان السلطان يقوم بتعيين البعض منهم ، بينما يقوم قاضي القضاة بتعيين البعض الآخر .

وقد كان قضاة الشرع يشكلون في أوائل العهد العثماني المحاكم العادية بوجه عام . وكان اختصاص القاضي الشرعي شاملا لكافة الأمور ، غير أن هذا الوضع لم يدم طويلا . غير أن الحجاز وسائر أقاليم شبه الجزيرة العربية لم تتأثر في ظل ذلك الحكم بما ابتدع في أخريات أيامه الا قليلا .

فالقاضي الشرعي ، الذي كان يشكل بوجه عام المحاكم العادية ، اقتصر على النظر في أحكام الزواج والطلاق وغيرهما من الأحكام المصطلح عليها حديثا اسم « الأحوال الشخصية » ، فقد أحدث العثمانيون محاكم نظامية للنظر في المعاملات إثر صدور المدونات العثمانية الجديدة . ثم أدت عوامل الفوضى والاضطراب الى قيام المحاكم القنصلية بمقتضى نظام الامتيازات الأجنبية ، ثم محاكم الأقليات للنظر في مسائل الأحوال الشخصية المتعلقة بأبناء الطوائف من غير المسلمين من رعايا دولة آل عثمان .

النظام القضائي في المملكة العربية السعودية

يعتبر فتح مدينة الرياض في أوائل القرن الحالي على يد المغفور له الملك عبد العزيز نواة لبناء تلك الوحدة التي ظهرت في قلب شبه الجزيرة العربية في أعقاب الحرب الأولى ، فقد تم له الاستيلاء على سائر أقاليم نجد في سنة ١٩٠٦ ، وتم له ضم الأحساء في سنة ١٩١٣ ، والقضاء على حكم آل الرشيد في حائل سنة ١٩٢١ ، وفتح الحجاز في أواخر سنة ١٩٢٤ ، وضم منطقة عسير في سنة ١٩٣٠ ، ثم اعلان المملكة العربية السعودية على الدولة الجديدة في سنة ١٩٣٢م .

وكان الملك عبد العزيز قد أعلن في سنة ١٩٢٦ بيانا أكد فيه تقيده بالشريعة الاسلامية كدستور للحجاز . على أن القضاء في أعقاب نشوء الدولة الجديدة مر بمراحل مختلفة تختلف أولاها في التشكيل المؤقت الذي صدر به أمر ملكي في عام ١٩٢٦ ، ثم تلاه مرسوم ملكي صدر في عام ١٩٢٧ يقضي بتشكيل المحاكم الشرعية في الحجاز .

ويعتبر التشكيل الذي جاء به المرسوم الملكي الصادر في سنة ١٩٢٧ أساس التشكيل الحاضر . وقد قضى بايجاد محاكم كبرى ، ومحاكم مستعجلة ، وهيئة للمراقبة . ثم توالت النظم الى أن استقر الوضع بصدور نظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعي في سنة ١٣٧٢ ، الذي عين ترتيب المحاكم واختصاصها ومرجعها وتفتيشها . كما صدر نظام في العام نفسه يقضي بتنسيق الأعمال في الدوائر الشرعية ، وهو يعتبر بمثابة قانون للمرافعات .

ورغم الوحدة الشاملة التي انتهت بتأسيس المملكة العربية السعودية الا أن الأوضاع في بداية الأمر لم تكن لتسمح باخضاع كافة أجزائها لنظام موحد . فالحجاز بحكم ماضيه ومركزه السياسي عبر العصور كان أميل نسبيا الى قبول التنظيم من أجزاء المملكة الأخرى ، وفيما عداه كان القاضي يتبع مجلس الأمير – حاكم الاقليم – وقد ترتب على ذلك الوضع أن القاضي كان ينظر في عامة المسائل والأمور بكافة المعاملات والجنايات دون تحديد .

وقد بقي قضاة الحجاز في الأيام الأولى لتأسيس المملكة يطبقون المذهب الحنفي ، وهو المذهب الذي كان سائداً خلال حكم الأشراف للحجاز ، بينما كان قضاة نجد يطبقون المذهب الحنبلي .

ولما كان هذا الاختلاف لا ينسجم مع الوحدة الشاملة للبلاد ، ومع خصائص الدولة الموحدة ، فقد ارتأت الدولة أن تعيد النظر في ذلك الأمر حتى صدر في سنة ١٣٤٥هـ مرسوم ملكي يقضي بتوحيد الأساليب الفقهية في جميع أجزاء المملكة ، ويجعل مذهب الامام أحمد بن حنبل المذهب الرسمي للقضاء . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا المذهب هو المذهب السائد في البلاد . وفي ٧ محرم سنة ١٣٤٧هـ أصدرت الهيئة القضائية العليا قراراً يوجب العمل بالقول المفتى به من مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وعينت الكتب المعتمدة في المذهب ، وهي : « شرح المنتهى » و « شرح الاقناع » ، وعند اختلافهما يعتمد الأول . وعند عدم النص فيهما يرجع الى شرحي « الزاد » أو « الدليل » . وان لم يوجد نص في هذين الكتابين يرجع الى كتب المذهب التي هي أبسط منهما ، ويقضى بالقول الراجح فيها . ثم صدر مرسوم ملكي في ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٤٩هـ يقضي بأن ما نصت عليه كتب الامام أحمد يجب أن يعمل به دون الحاجة الى اجتماع أعضاء المحكمة ، ولكن لا بد من اجتماعهم عند وجوب الاجتهاد فيما لا نص فيه .

وقد تكللت الجهود أخيراً بتوحيد القضاء تحت رئاسة واحدة بعد أن ظل حتى عام ١٣٧٩هـ خاضعاً لرئاستين ، أحداهما في نجد ، والأخرى في الحجاز .

النظام القضائي بالمملكة في وضعه الراهن

ان محور التنظيم القضائي لأي دولة حديثة ينعكس في محاكمها ، فهي أداة القضاة . ولفظة « المحكمة » اصطلاح حديث في عالم القانون ، لأن لفظة « القاضي » كانت هي السائدة في الفقه الاسلامي ، ولا تزال هي الاصطلاح الأكثر شيوعاً في نظم التقاضي في المملكة .

وقبل أن نتناول الصورة الوصفية للنظام القضائي على ضوء تركيز مسؤوليات القضاء الشرعي الصادر في سنة ١٣٧٢هـ ، نشير الى أمرين : أولهما ، أن الجهود التي بذلت منذ نشوء المملكة العربية

السعودية كانت تتناول مسائل توحيد القضاء في البلاد واختصاصات القضاة ، دون أن تنال من جوهر النظام ذاته أو طبيعته أو المبادىء الأساسية لنظام التقاضي الاسلامي . ولذلك فان نظام القضاء في المملكة يعتبر امتدادا للنظام القضائي الاسلامي .

والأمر الثاني ، هو ان الظروف السياسية التي أحاطت بالدول العربية الشقيقة منذ العهد العثماني ، ترتب عليها ظهور نظم مدنية ومحاكم نظامية فيها تطبق المدونات المستمدة من القانون الأوربي والمحاكم الأجنبية . وقد كانت أقاليم هذه المملكة بمنأى عنها ، رغم خضوعها للظروف نفسها التي كانت تخضع لها الأقاليم العربية الأخرى ولكن القضاء بقي فيها منوطاً بالقضاة الشرعيين وفق المنهج الفقهي الاسلامي .

أقسام المحاكم في المملكة

المحاكم الكبرى : وتتألف من رئيس ، ومساعد ، وأعضاء يختلف عددهم من مدينة لأخرى . وهي تنظر في المخاصمات والمعاملات التي لا تدخل في اختصاص قضاة المحاكم المستعجلة . ويقوم بتوزيع الدعاوى فيها على القضاة رئيس المحكمة . ويقوم كل واحد من هؤلاء القضاة بالنظر في الدعوى المحالة اليه على انفراد . غير أن رئيس المحكمة يشترك مع النواب في الأحكام التي تصدر بالقتل والقطع ، الى جانب ترؤسه الجلسات التي تعقد لمثل هذه القضايا .

المحاكم المستعجلة : وتتفرع عنها ثلاثة أقسام ، هي : المستعجلة الأولى ، والمستعجلة الثانية . والمستعجلة . فقاضي المحكمة المستعجلة الأولى ينظر في الدعاوى المالية التي لا تزيد على ٣٣٠٠ قرش سعودي وفي قضايا الجنح والتعزيرات الشرعية ، والحدود التي لا قطع فيها وفق أحكام الشريعة ، وكذلك في كل ما تخوله له الأوامر والتعليمات النظر فيه مما هو خارج عن اختصاصات المحاكم الكبرى والمحاكم المستعجلة الثانية .

وأما قاضي المحكمة المستعجلة الثانية ، فيختص بالنظر في أمور البادية وما يتعلق بها وكل ما تخوله له الأوامر والتعليمات النظر فيه مما هو خارج عن اختصاص المحاكم الكبرى والمحاكم المستعجلة الأولى .

وفي المناطق التي لا توجد فيها قضاة محاكم مستعجلة أولى وثانية ، يعين فيها قضاة محاكم مستعجلة ، وهم يختصون بالنظر في قضايا الجنح والتعزيرات والحدود التي لا قطع فيها ، وفي القضايا المالية التي لا تزيد على ٣٣٠٠ قرش سعودي ، وفي دعاوى البادية ، وفي كل ما تخوله له الأوامر والتعليمات النظر فيه مما هو خارج عن اختصاص المحاكم الشرعية الكبرى .

وتنص المادة ٨٥ من نظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعي على أن كل بلدة تخلو من قاضي محكمة مستعجلة ، يقوم قاضي محكمتها بجميع أعمال المحاكم المستعجلة واختصاصاتها ، بالاضافة الى أعماله الأساسية . وتتألف كل محكمة من المحاكم المستعجلة الثلاث من قاض واحد.

تدقيق الأحكام

وينص نظام تشكيل المحاكم الصادر في سنة ١٩٢٧ على ايجاد هيئة مراقبة للاشراف على جميع المحاكم الشرعية ، وتدقيق الأحكام الصادرة وابرامها أو نقضها مع اعادة القضية الى المحكمة التي حكمت فيها لاعادة النظر فيها . وكانت هيئة المراقبة في ظل ذلك النظام تتألف من خمسة قضاة ، لكن التشريعات المتعاقبة التي صدرت بعد ذلك عهدت بمسؤولياتها الى رئاسة القضاء . ويوجد في البلاد الآن هيئتان لتدقيق الأحكام ، أحداهما في مكة المكرمة والأخرى في الرياض . وتتكون الواحدة منهما من رئيس وثلاثة قضاة .

* * *

ذلك هو الاطار العام للقضاء في المملكة العربية السعودية . غير أنه في الوقت نفسه توجد هيئات خاصة تمارس نوعاً معيناً من فض المنازعات . وهذه الهيئات هي :

* **المجلس التجاري :** وقد تأسس في سنة ١٣٤٥هـ وأعيد تشكيله بموجب نظام المحكمة التجارية الصادر في سنة ١٣٥٠هـ. وكان يضطلع في وقت من الأوقات بالنظر في المسائل التجارية التي تحدث بين التجار ومن لهم علاقة تجارية .

غير أن هذا المجلس لم يدم طويلا ، فقد ألغي بعد فترة من تأسيسه وأحيلت كافة القضايا والأمور التي كان ينظر فيها الى المحاكم الشرعية .

* **مجلس ادارة ينبع :** ويختص بالنظر في المسائل التجارية ، ومقره ينبع ، وقد ألغي كسابقه.

* **هيئة فض المنازعات التجارية :**

في وقت متأخر صدر قرار مجلس الوزراء الذي عهد الى وزارة التجارة الصناعية باختصاصات المجلس التجاري ، وعلى أثر ذلك أصدر وزير التجارة والصناعة في سنة ١٣٨٢هـ قراره القاضي بتشكيل هيئة باسم « هيئة فض المنازعات التجارية » للنظر في المنازعات التجارية التي كانت منوطة فيما مضى بالمجلس التجاري . ثم تقرر بعد ذلك دمج هذه الهيئة وهيئة حسم منازعات الشركات التجارية المنصوص عنها في المادة ٢٣٠ من نظام الشركات في هيئة واحدة أطلق عليها اسم « هيئة حسم المنازعات التجارية » ، على أن تشكل هذه الهيئة في كل من الرياض ، وجدة ، والدمام ، وفقاً للمادة ٢٣٢ من نظام الشركات . وتتألف هذه الهيئة من ثلاثة مستشارين قانونيين . وكانت قبل تشكيلها تتألف من رئيس تنتدبه وزارة التجارة والصناعة ومستشار قانوني وعضو عن الغرفة التجارية . هذا ، وقد أعقب تشكيل هذه الهيئات تشكيل هيئة لتمييز القرارات الصادرة عنها برئاسة وكيل وزارة التجارة والصناعة ، وعضوية مستشارين اثنين ممن لم يسبق لهم الاشتراك في النظر في أي من القضايا المميزة. وتقوم هذه الهيئة بالتصديق على القرارات الابتدائية ما دامت مطابقة للشريعة الاسلامية والأنظمة المعمول

بها . غير أن هذه الهيئات ما لبثت أن ألغيت ثم أعيد تشكيلها بموجب قرار مجلس الوزراء في كل من الرياض وجدة والدمام . وهي تتألف من اثنين من رجال الشرع ، وقد أعطيت قراراتها الصفة النهائية . وهي تتبع وزارة التجارة والصناعة من الناحية الادارية .

* **الهيئات العمالية :** أعطي لهذه الهيئات وحدها اختصاص النظر في القضايا العمالية ، وهي تصدر أحكامها عن طريق جهات تابعة لوزارة العمل وهذه الجهات ، هي :

* **المكتب الرئيسي** في المنطقة التي تعتبر موطناً لطرفي الدعوى ، ويصدر أحكاماً ابتدائية قابلة للاستئناف أمام المديرية العامة لشؤون العمل .

* **المديرية العامة لشؤون العمل ،** وتنظر في القضايا المستأنفة من قبل المكاتب الرئيسية ، وأحكامها قابلة للاستئناف أمام اللجنة العليا .

* **اللجنة العليا للنظر في القضايا والخلافات العمالية ،** ويقتصر اختصاصها على النظر في القضايا المستأنفة من قبل المديرية العامة لشؤون العمل ، وتصدر أحكامها بصفة نهائية قاطعة .

وقد صدر نظام العمل الجديد الذي أصبح ساري المفعول اعتبارا من ١٩ رمضان ١٣٨٩هـ الموافق ٢٨ نوفمبر ١٩٦٩م فلجأ الى تعديل اجراءات التقاضي الطويلة ، وأصبح الوضع بموجب النظام الجديد على الشكل الآتي :

أ — اللجان الابتدائية لتسوية الخلافات .

ب — اللجنة العليا لتسوية الخلافات .

وطبقا للمادة ١٧٣ من نظام العمل الجديد تؤلف بقرار من مجلس الوزراء في كل مكتب من مكاتب العمل الرئيسية والفرعية في المملكة اللجان الابتدائية لتسوية الخلافات بناء على ترشيح وزير العمل ، وتشكل كل لجنة من ثلاثة أعضاء من أصحاب الخبرة في القضايا الحقوقية . ويجب أن يكون واحد على الأقل من العضوين الآخرين من حملة الاجازة في الشريعة أو الحقوق . ويحدد القرار من بينهم رئيسا . وتختص اللجان الابتدائية بالفصل نهائيا في :

* الخلافات العمالية التي لا تتجاوز قيمتها الثلاثة آلاف ريال .
* والخلافات المتعلقة بوقف تنفيذ قرارات فصل العمال المرفوعة وفق أحكام النظام .
* والخلافات المتعلقة بتوقيع الغرامات أو بطلب الاعفاء منها .

كما تختص هذه اللجان بالفصل بدائيا في :

* الخلافات العمالية التي تتجاوز قيمتها الثلاثة آلاف ريال .
* والخلافات المتعلقة بالتعويض عن اصابات العمل أيا كانت قيمتها .
* والخلافات المتعلقة بالفصل عن العمل .

أما اللجنة العليا لتسوية الخلافات فتؤلف هي الأخرى بقرار من مجلس الوزراء من خمسة أعضاء ، ثلاثة منهم يمثلون وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، والرابع عن وزارة التجارة والصناعة ، والخامس عن وزارة البترول والثروة المعدنية . ويسمى أحدهم رئيسا وذلك طبقا لقرار مجلس الوزراء نفسه على أن لا تقل مرتبته عن الثانية .

أما اختصاصاتها فتنحصر في الفصل نهائيا وبالدرجة القطعية في جميع الخلافات التي ترفع للاستئناف أمامها ، وكذلك في فرض العقوبات المنصوص عليها في نظام العمل بحق المخالفين لأحكامه . وتصدر اللجنة العليا واللجان الابتدائية قراراتها بأغلبية آراء أعضائها .

* **ديوان المظالم :** رأينا أن قاضي المظالم قد اضطلع في التاريخ الاسلامي بممارسة اختصاص قضائي ، أبرزه النظر في الشكاوى التي ترفع على الحكام وعمال الخراج ، فهو نوع من القضاء الاداري . وقد عرفته البلاد في تاريخها الحديث بصدور نظام مجلس الوزراء القديم في سنة ١٣٧٣ الذي ينص على تأليف شعبة للمظالم في ديوان مجلس الوزراء تختص بالتحقيق في الشكاوى التي تقدم أو تحال اليه ، واعداد تقرير عنها والاجراء المقترح اتخاذه بشأنها ، ليرفع بعد ذلك الى جلالة الملك ليصدر أمره فيه .

وقد أعطي لرئيس الديوان أو من يخوله من موظفيه حق استجواب أيا كان من موظفي الوزارات والمصالح والتحقيق معهم . ويحق للرئيس أن يقترح احالة أي موظف تثبت علاقته بأية شكوى الى مجلس تأديبي أو أن يقترح معاقبته بالطرق الادارية .

وبعد فترة قصيرة صدر نظام جديد لديوان المظالم يمارس الديوان بمقتضاه سلطاته . وتنحصر اختصاصاته فيما يلي :

* التحقيق في كل شكوى تقدم أو تحال اليه ، واعداد تقرير عنها يتضمن وقائعها وما أسفر عنه التحقيق فيها ، والاجراء الذي يقترح الديوان اتخاذه بشأنها والأسباب التي يستند عليها الاجراء المقترح .
* ارسال التقرير المتضمن لوقائع الشكوى الى الوزير أو الرئيس المختص ، مع ارسال صورة عنه الى ديوان جلالة الملك ، وصورة أخرى الى ديوان رئاسة مجلس الوزراء . وبموجب التعديل الجديد أصبح الوزير أو الرئيس المختص للجهة التي يتبعها الموظف ملزماً بتنفيذ ما جاء في هذه التقارير ، أو الاعتراض عليها خلال أسبوعين من تاريخ استلام التقارير . وفي حالة أي اعتراض يبين الوزير أو الرئيس المختص أسباب معارضته ، وعندها يرفع رئيس الديوان الأمر الى جلالة الملك ليصدر قراره بما يراه مناسباً . وقد جعلت هذه الاختصاصات من ديوان المظالم هيئة قضائية واسعة النظر .

تقدير نظام القضاء في المملكة

ان النظام القضائي في المملكة العربية السعودية القائم في كلياته على الأصول الشرعية ، والذي يعتبر امتداداً متصلا بالقضاء الاسلامي ، منذ نشأته وعلى توالي العصور ، يقوم على البساطة في الاجراءات ، مما يجعله قضاء سريعاً وعملياً . وهذا القضاء ، كما يقول بعض الكتاب ، أقرب الى العدل الحقيقي من القضاء المعقد البطيء ■

الطفل ...

بقلم الاستاذ عبد العزيز ضياء

لا يذكر شيئا عن أبيه . الا ما تحدثه به أمه . كلما رأى أمثاله من الأطفال يمشون صحبة آبائهم الى المدرسة أو الى الأسواق في الصباح . ولم يستطع أن يتخيل وجه هذا الأب قط . وان كانت والدته تؤكد انه يشبه أباه في كل قسمة من قسماته ، بل حتى في حركة يديه حين يتكلم ، وفي مشيته حين يمشي ، وفي ارتفاع جبهته واشراقها على الأخص .

ومع ان امه كثيرا ما كانت تضيق بأسئلته المتلاحقة الملحة ، فقد ظل يتلهف على سماع أي حديث عن أبيه ، فيبتكر الوسائل ويحتال الحيل لاغرائها بالتحدث عنه ، خصوصا حين يتناول عشاءه معها بعد الغروب ، أو حين تأخذ في تهيئة فراشه للنوم .

وكان مما سمعه واستقر في أغوار نفسه ، ان أباه كان يحفظ القرآن الكريم ، ويصلي في رمضان صلاة التراويح اماماً ، يقرأ فيها أجزاء كثيرة من المصحف. فاذا انتهى من الصلاة احتفل به المصلون ، ومنهم من يقدم له الهدايا يعود بها الى منزله قبل مدفع السحور .

وبقدر ما كان معجبا بهذه الصورة عن أبيه ، كان تشوقه لرؤياه . ولم يحدث أن قالت له أمه انه مات ، كما يموت كثير من الناس .. كانت تؤكد له انه قد سافر منذ زمن طويل . فاذا سألها : متى يعود ؟ تكتفي بأن تقول له انه سيعود عندما يفرغ من عمله في المكان البعيد .

ولم تقل له أين هذا المكان ، فاذا اشتد في الحاحه عليها بالسؤال ، تكتفي بأن تشير بيدها اشارة لا يفهم منها الا انه مكان بعيد جدا ، لا سبيل الى أن يعرف عنه شيئا على الاطلاق .

وفي ذات صباح باكر ، سمع باب البيت يطرق ، وكانت أمه ما تزال نائمة ، فركض لاهثا ، وفي قلبه الصغير أمل محموم بأن الذي يطرق الباب في هذا الصباح هو أبوه ... سيراه حين يفتح الباب ، وسيقذف نفسه بين ذراعيه ، وسيحمله أبوه على كتفه كما يفعل جميع الآباء مع أبنائهم حين يطيلون الغياب في مكة أو في الطائف ، أو غيرها من هذه المدن التي يسمع ان الآباء يسافرون اليها بين الحين والحين .

وفتح الباب لاهثا ليجد أمامه رجلا يحمل حقيبة معلقة على كتفه وفي يده ظرف ، يسأله عن بيت أحد الجيران . وابتلع ابراهيم أمله الضائع ، وتطوع فمشى مع ساعي البريد الى بيت الجيران ، ونادى أحد الصبية من لداته ، ورأى بعينين ذاهلتين ، كيف استلم الصبي البرقية وكيف طار بها الى داخل المنزل ، وهو يهتف : ماما ... يا ماما .. برقية من أبي ...

وعاد ابراهيم الى بيته ، وفي ذهنه ان الآباء يرسلون هذه التي يسمونها برقية تخبر أبناءهم بما يريدون ، وقفز الى ذهنه سؤال : ترى لم لا يرسل أبوه برقية ، كما يفعل جميع الآباء .. ؟ وعاد بذاكرته الى السنين التي مضت من عمره ، ليجد انه لم يسمع قط ان أباه قد أرسل برقية ، أو ان أمه حدثته عن شيء من هذا النوع .. منذ وعى الحياة حتى اليوم .

ولا يدري لم تهيّب أن يوقظ أمه في هذا الصباح وأن يسألها السؤال الوحيد الذي لم يسبق له أن فكر في توجيهه اليها قط . وارتمى في فراشه بجانبها ، ولم يستطع أن يمسك دموعا ظلت تتلاحق على وجنتيه الشاحبتين في صمت .

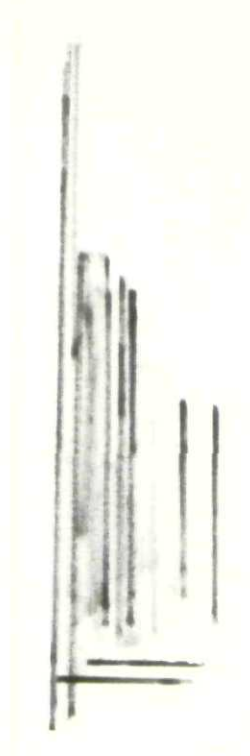
وعلى مر الأيام أخذ ابراهيم يدرك من حقائق الحياة ما لم يكن يدركه من قبل ، وكان أهم ما أصبح يعيه ولا يستطيع له تفسيراً ، هو ان أمه تعمل ، وان الزائرات الكثيرات اللائي يغشين البيت ، يأتين بالأقمشة تخيطها لهن ثم تأخذ على كل فستان أجرا . ومن هذه الأجور التي تبعثه لمطالبتهن بدفعها مرات ومرات ، تؤمن ما تنفق به على نفسها وعليه ، وانها كثيرا ما تورطت في نزاع مع اللائي لا تعجبهن حياكتها ويبلغ النزاع حد الشجار ، فيقذفن في وجهها الأقمشة ، ويسمعنها كلاما قاسيا . فاذا ذهبن عن البيت ، استسلمت للبكاء في صمت ، ورددت في تأوه عميق حزين كلمة واحدة لم يسمع سواها قط . وهي : (يا رب... يا رب .. يا رب) فلا يملك الا أن يرتمي على ذراعيها باكيا الى أن يهدأ جأشها وتنهض لتبدأ عملها الرتيب .

ومن الحقائق التي أدركها أيضا ، ان حكاية عودة أبيه حكاية خيالية ، تخترعها أمه اختراعاً كالكثير من هذه الحكايات التي يسمعها من السيدات العجائز اللائي يزرن أمه بين الحين والحين . وأخذ يدور بذهنه في متاهات لا حصر لها ، ألف أن يضيع في حواشيها ، واستطاع أن يخرس كل محاولة للخروج منها ، حين رأى كيف تترقرق الدموع في عيني أمه كلما دار الحديث بينه وبينها عن الغائب الذي لا يريد أن يعود .

وفي ذات يوم ، قالت له أمه : بعد غد السبت سأذهب بك الى المدرسة ، وسنذهب اليوم الى السوق ، لأشتري لك حقيبة ، وأقلاما ودفاتر وأشياء كثيرة أخرى .

وحين وقفت به أمه أمام مدير المدرسة ، وقالت انها زوجة « عبد الرحمن توفيق » ، وان هذا ابنه ابراهيم ، رأى في وجه المدير اهتماما وحفاوة وترحيباً . وحين ذهبت أمه ، وتركته في غرفة المدير ، سمع هذا يقول لكاتب بجانبه : « كان أبوه رجلا فاضلا ، سافر من البلد ، وهذا الولد في بطن أمه ، والعجيب ان أحد لا يعلم أين هو ، منذ غادر البلد حتى اليوم .. لم يبعث حتى برقية الوصول ، يقال انه في الهند ، ولكن الهند كبيرة كما تعرف ، والله يعلم أين يعيش – ان كان ما يزال حيا . » ثم التفت الى ابراهيم وسأله : « ألم تصلكم أخبار من أبيك يا ابراهيم ؟ »... وطأطأ رأسه لا يحير جوابا ، وشغل المدير بما أمامه من العمل . ثم قام الكاتب ، وأخذه معه الى أحد الفصول .

وطوى ابراهيم أربع سنوات من المرحلة الابتدائية بنجاح ، وحين استطاع أن يقرأ ويكتب تفتح ذهنه على كثير من حقائق الحياة ، وكان أهمها انه يعيش على شقاء أمه وسهرها الليالي الطويلة وراء آلة الخياطة ، ولا بد له أن يفعل شيئا ليخفف من عنائها ان لم يستطع أن يريحها



من العمل تماما . وشرع يتتبع اعلانات الوظائف الشاغرة في الصحف ، ويقرأ هذه الشروط التي تنشر الى جانب كل وظيفة . وعجز أن يجد بينها وظيفة واحدة ، يمكنه أن يلتحق بها دون أن يحمل الشهادة الابتدائية . وكان بينه وبين السنة النهائية سنتان بكاملهما .. كان في أول السنة الخامسة ، ولا سبيل الى الشهادة الا بعد سنتين . وفهم من زملائه انه يستطيع أن يتقدم للشهادة من المنزل ، فينال الشهادة بعد عام . وصمم على أن يخطو هذه الخطوة حين كان في الحصة الأخيرة من يومه الدراسي ، وما كاد يخرج من باب المدرسة ، حتى أسرع خطاه الى البيت .

طرق الباب في استعجال لاهث . وما كاد يرى امه حتى هتف : سأنال الشهادة في نهاية العام .. سأختصر سنة بطولها ، وقبل أن تتماسك من دهشتها ، قال : وبمجرد أن أحمل الشهادة سأتوظف .. أتوظف يا أمي وتستريحين أنت من هذا التعب ، وقفز يأخذ وجهها بين يديه ويغمره بالقبلات ..

ورأى كيف يحتقن وجهها ، وتمشي في قسماته سحابة من حيرة وارتباك .. انتظر أن تقول له أي كلمة ، فلم يسمع منها شيئا ، وقبلته قبلات أحس انها اقل حرارة من تلك التي عهدها منها كلما جاءها بشهادة من شهادات النجاح ، أو بأخبار الثناء الذي كان يجده من المدرسين .

ودخل الغرفة التي تستقبل فيها زائراتها فرأى سيدة لم يسبق له أن رآها من قبل . وقالت أمه : هذا ولدي ابراهيم ثم التفتت اليه تقول : « هيا اذهب واخلع ملابسك ، واغسل وجهك ، وسألحق بك » . وخرج من الغرفة متباطئا ، وما كاد يمشي خطوتين حتى سمع السيدة الزائرة تقول : « سيحبه كما يحب ابنه ، بل هو يحبه منذ زمن طويل .. كثيرا ما حدثني عن ذكائه وجده واجتهاده . »

ومشى وهو يتسائل : ترى من هو هذا الذي تتحدث عنه السيدة الزائرة . وقبل أن يضع حقيبته في ركن الغرفة ، كان يرى صورة رجل .. مجهول .. هو الذي جاءت السيدة من أجله ، وكانت ما تزال تتحدث عنه . وتساءل « ماذا يعني هذا ؟ » .. واستطاع أن يطرد عن ذهنه فكرة العودة الى الممر ليسمع المزيد ، وليعرف ماذا هناك.

ولم يطل به الانتظار ، فقد سمع أمه تودع السيدة وهي تردد : « يختار الله ما فيه الخير .. » ، وسمع السيدة تقول : « كل شيء قسمة ونصيب. »

وحين دخلت أمه الغرفة التي قبع في ركن منها ، رأى في عينيها انها قلقة حائرة .. تريد أن تقول شيئا .. أشياء كثيرة ولكنها لا تستطيع ..

وعادت الى ذهنه صورة الرجل المجهول الذي سيحبه ، كما يحب ابنه ، وامتلأت نفسه بهذه الصورة ، ووراءها مشاعر غامضة .. غاص لها قلبه الصغير .. وظل هو أيضا يريد أن يقول شيئا فلا يستطيع ..

وأخيراً استطاع أن يهمس : ماما .. من هو الذي تتحدث عنه السيدة التي كانت هنا ؟

وكأنما قد ألقى اليها بما ينتشلها من الغرق ، فقالت : انه .. انه مدير مدرستك يا ابراهيم ، وهذه أمه .. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئا .. فقد التزمت الصمت ، وانصرفت تعد له غداءه .. وفي نفسها انه قد فهم كل شيء .

ولم يعد ابراهيم الى الحديث عن الشهادة التي سيتقدم اليها من المنزل ، وضاعت أحلامه الكبيرة في النجاح الذي قرر أن يعمل له ليتوظف ، وليريح والدته من العناء الطويل .

وحين خرج من البيت الى المدرسة في صباح اليوم التالي ، كان يعلم ان مديرها قد خطب أمه لنفسه ، وانه هو الرجل الذي سيحبه كما يحب ابنه .

ولمح المدير وهو يدخل فناء المدرسة ، فأغضى وأطرق ، ومشى بين لداته ، وكأن بحراً لا قرار له يلتهم كيانه الصغير ويلفه في أحشائه ، فـلا يستطيع أن يستسلم لمصير غامض بعيد .

وخلال حصة الفقه التي كان يلقيها المدرس كان ذهن ابراهيم مشغولا بأمه التي لم يعد يشك في أنها ستتزوج المدير .. ثم بأبيه الذي قالت له مئات المرات ، انه يشبهه هو في كل قسمة من قسماته ، بل حتى في حركة يديه حين يتكلم ، وفي مشيته حين يمشي ، وفي ارتفاع جبهته على الأخص . واستطاع أن يجمع شتات ذهنه ، وأن يقول لنفسه أن المدير لا يشبهه في شيء أبدا ، فهو لا يشبه أباه اطلاقا . وردد كلمات السيدة ، والدة المدير ، وهي تقول : انه سيحبه كما يحب ابنه .. وغاص قلبه مرة أخرى ومرات ، فقد كان يعتقد ان الوحيد الذي يحبه في هذا العالم هو هذه الأم التي لم ير في حياتها سواه ، ولم يشعر قط بمن يعطف عليه سواها . وأوغل في التفكير الى أن وجد نفسه يتساءل : ترى أين سينام حين تتزوج أمه المدير ؟ .. لن ينام الى جانبها ، ولن يسمع حكاياها الحلوة ، ولن تجيبه على أسئلته الكثيرة عن أبيه الذي سافر ولم يعد ، وعن حفظه للقرآن ، وصلاته اماماً في رمضان .

وانتبه على صيحة من مدرس الفقه وهو يوجه اليه سؤالا لم يكن قد سمعه ، ولم يكن في ذهنه ما يجيب به عليه . وكانت هذه أول مرة ، يسمع فيها مثل هذه الصيحة ، ووراءها كلمة تأنيب كثيراً ما حرص على أن لا يسمعها من المدرسين .

وقبل نهاية الشهر ، كان كل شيء قد تم .. وحين عاد من المدرسة بعد ظهر يوم الخميس ، كان يعلم ان أمه — وهو معها — سيغادران بيتهما الى بيت المدير . وظل السؤال الذي لم يستطع أن يوجهه الى أمه هو : أين ينام حين يذهب معها الى البيت الجديد ؟ ..

ورأى وجه أمه وهو يدخل عليها بعد الظهر .. ذابلا شاحباً ، ورأى في عينيها بقية من دموع . وبكى .. بكى كما لم يبك في حياته قط ، وبكت هي أيضاً وهي تضمه الى صدرها النحيل وتغمر وجهه بما لا حصر له من قبل فيها كل ما تستطيع لارضائه فيما بدا لها انه كارثة بالنسبة للطفل الصغير .

ومع ذلك ، لم يستطع أن يسألها أين ينام في بيت المدير ..

ومضى وقت الظهيرة بطيئاً ثقيلا .. كانت أمه خلاله تجمع أمتعتها في الحقيبة الكبيرة ، وقد رأى بينهما أردية جديدة ذات ألوان وزجاجات عطر وزخارف مما يتحلى به النساء .. ورأى أمتعته هو ملقاة هناك على طرف الوسادة ، وبينها الحذاء الجديد الذي اشترته له في عيـد رمضان .. ترى هل تفكر أمه في أن تتركه وحده في هذا البيت ؟.. وأن تذهب وحدها الى بيت المدير ؟! قال لنفسه : ليتها تفعل .. وردد أمنيته وهو ما يزال يغص بدموعه ، وهي ما تزال دامعة العينين ، تجهش بالبكاء كلما ألقت عليه نظرة ، ورأت انه ما يزال يجتاز طريقه الوعرة الى المصير المجهول .

وفي لحظات الغروب ، أخذ الباب يطرق بين الفينة والفينة ، وتدخل منه سيدة من الجارات والمعارف اللائي سيذهبن مع أمه الى بيت العريس ، فلا تكاد الواحدة منهن تراها باكية شاحبة حتى تشهق هي أيضاً وتأخذ في البكاء ، مع كلمة من كلمات المواساة والعطف والتشجيع .

وقالت احداهن : ستأتي السيارة بعد صلاة العشاء .. قال أبو محمد انه سيصلي العشاء . ويجيء ليأخذنا .

وقالت أخرى : وأبو حامد أيضا سيأتي بسيارته ، ومعه الرجال ، وابراهيم ..

وأدرك ابراهيم . انه لن يبقى في هذا البيت منذ اليوم .. سيذهب مع أمه الى بيت المدير . ومرة أخرى ، وجد نفسه يقول : كلا ان المدير لا يشبه أبي اطلاقا ، ولن يحبني كما يحب ابنه .. وحتى أمي .. وابتلع أفكاره عن أمه ، فقد كان لا يطيق أن يتصور أن يحرم منها هي أيضاً ..

وارتفع بوق سيارة قالت كل سيدة انها ليست سيارة احداهن .. وعقبت أخرى : لعلها مرسلة من العريس .. وهتفت ثالثة تقول : قم يا ابراهيم وانظر من هناك ؟

ونهض ابراهيم متثاقلا ، وهو يسمع من يناديه هو بالذات .. كلا لم يكن صوت طفل من الأطفال ، ولم يكن صوت المدير ، ولا صوت أحد من الجيران .. وقبل أن ينتهي من الممر ، رأى أمه تركض خلفه ، وتهتف : أبوك .. أبوك ، يا ابراهيم ..

وارتفعت ضجة النساء ، وكل منهن تهتف : أبوك .. أبوك .. أبوك عبد الرحمن ، يا ابراهيم ..

وأحس ابراهيم بأن كل شيء حوله يدور .. وتلاشت الضجـة التي ملأت الممر ، وساد الصمت .. ولم يعد ابراهيم يعي شيئا مما حوله .

وحين فتح عينيه رأى وجها حانيا عليه .. كان هو .. الرجل الذي يشبهه في كل قسمة من قسماته ، وفي ارتفاع جبهته واشراقها على الأخص ..

وأدار عينيه في المكان ، فرأى رجالا كثيرين ، ورأى المدير ، ومدرس الفقه ، وسمع صوت أبيه لأول مرة ، وهو يقول : « الحمد لله .. انه بخير » وسمع رجلا عرف أنه الطبيب ، وهو يقول : « فعلا انه بخير .. »

وسمع النساء خارج المكان يتهامسن : « لقد صحا .. صحا .. اطمئني يا أم ابراهيم انـه بخير .. » وحمله أبوه على صدره ، ونهض به وهو يقول : « طريق .. طريق يا جماعة » ، وانطلق في الممر الى الغرفة التي ينام فيها ابراهيم .. كان فراشه هناك ، وكانت أمه في ركن الغرفة مع بقية النساء .

ونام ابراهيم ليلته ، وحين استيقظ في الصباح ، رأى نفسه لأول مرة يجلس لتناول افطاره مع أمه وأبيه ... ■

حصاد الكتب



عبير من دمشق

تتقاطر في هذا الديوان الجديد للشاعر عدنان مردم بك صور شامية كثيرة تتممها صور فنية وأخرى من بنات التأمل والتفكير وغيرها من صور اليعربيات في أمصار شتى .

ويكاد الوصف يكون الطابع الشامل للديوان كله ، فليس فيه موضع لهجو أو غزل ، ولا فيه قصائد من العنتريات المدويات ، ولا يندرج فيه شعر المناسبات ولا يحفل بشعر السياسة . وهو جميعا من الشعر الذي استقامت أوزانه وتواترت قوافيه واكتملت له موسيقاه كما عهدها العرب القدامى وكما وصفها الخليل بن أحمد .

و « دمشقيات » مردم بك فيها مرائي الغوطة والقلعة والربوة ، وفيها لوحات من رسم فنان صناع للبرق وسنابل القمح والناعورة والصفصافة وزهر شقائق النعمان ، وفيها مأثورات شعبية تخلد في الشعر صناعة الخزّاف والنسّاج والبزّاز وبائع شراب السوس والحمّال ، بل فيها تصاوير مستمرة من هوامش الحياة ، عدا مفاخر تاريخية حفل بها الشآم في سحيق أيامه .

ويؤخذ من التواريخ المختلفة التي ذيلت بها قصائد الشاعر أنها نظمت في فترات متقاربة أو متباعدة تمتد في جملتها الى عشر سنوات ، فجاء شعر الديوان مترجحا بين القوة في أغلبه والضعف في أقله ، وصافحت العين تشابها في بعض الأبيات فضلا عن تكرار في بعض المعاني هو نتيجة طبيعية لفوات زمن فاصل بين تاريخ نظم قصيدة بعينها وتاريخ نظم غيرها .

فمن المعاني المكرورة التي تكاد تتطابق قول الشاعر في قصيدة :

شابت ذؤابتها وما وهنت
قدم على الأحداث من ذعر

وقوله في قصيدة غيرها نظمت بعدها بعام :

لم يطفها ترف وما وهنت
قدم لها يوما على عسر

وعبارة « شابت ذؤابتها » قد تكررت أربع مرات في الديوان ، كما تكرر حديثه عن سيناء و « موسى الكليم » في مواضع كثيرة وعن « عبد شمس » في مواضع متعددة . أما السيوف والرماح بأسمائها المختلفة بين « مهند » و « نصل » و « ذباب » فهي كثيرة الوقوع في شعر الشاعر ، وربما لاستيحائه اليعربيات في شعره .

والجيد في شعر مردم بك ينتصب في وضوح قسماته وجلاء صوره وبراعة رسمه أروع انتصاب ، ومن ذلك وصفه البالغ الروعة للبرق حيث يقول :

أعلامه النيران تصطفق
في شاسع وهنا وتأتلق
عصفت غواربه مجلجلة
بغوارب للنار تحترق
وذكت مشاعله مشعشعة
أنوارها وكأنها الشفق
من دونه تجد السحاب دجت
أسجافه وكأنها طبق
يجري الغمام العمر دون هدى
متعثرا حينا وينزلق
واذا الرياح حدت به نزفت
حدق له واستعبرت حدق
والبرق يبسم عن لآلئه
في جنح ليل حشوه القلق

ويقول في وصفه سنابل القمح :

طالت أعاليها ودق جليلها
كذباب نصل غربه يترقرق
فتشابه اللونان : أخضر مشرق
من دونه يفتر أبيض مشرق
وترى السنابل أشرقت أعرافها
والفجر من خلف الغمائم أزرق
فيخف في طرب اليها صادح
وينوح من برح الحنين مطوق
في كل حبة حنطة لارادة
معنى يطيش به البيان المشرق
وئدت لتبعث حية فاذا بها
في كل عام تستجد وتخلق

أما عبارات الحكمة المصطفاة ، فهي مبثوثة في شعر عدنان مردم بك كقوله :

واذا العجائب أن كل عجيبة
مرهونة يوما بطي كتاب

وقوله :

لا تكذب التاريخ مفنئتا
فالحق لا تعلو عليه يد

وقوله :

وأمضّ أنواع العمى وأجلها
عقل ضرير بالغباوة معرق

في الأدب والحياة

هذا الكتاب مجموعة من المقالات الأدبية التي اتخذ فيها الأستاذ وحيد الدين مواقف محددة من مسائل أدبية تشغل الاهتمام ، وان كان يعيبه أن الحماسة والانفعال غلبتا على رصانة البحث ، كما أنه اقتضب الحديث في موضوعات تتسع لاطالة مجال القول ، وتحتمل كثيرا من التفصيل في المعالجة .

ومن الموضوعات التي تعالج جانب الأدب ، وهو أحد جانبي موضوع الكتاب ، ما كتبه وحيد الدين عن حرية الفكر والتفكير ، وعن نظرته للأدب ، وعن تفاهات الأدباء ، وعن اخلاقيات الناقد ، وعن الكتاب والمكتبة والمطالعة ، وعن الواقع الأدبي ، وعن النزاهة الفكرية ، وعن أدب نجيب محفوظ ، والأدب الذي نريده ، وواقع الكاتب المعاصر ، وما الى ذلك. أما الموضوعات التي تناولت جانب الحياة ، وهو القسم الثاني من بحوث الكتاب ، وان يكن المؤلف قد مازج بين القسمين ، ولم يفرق بينهما ، فقد كان منها ما يدور حول الانسان وقيمه الثابتة ، وحول تعاقب السنين ودورات الأيام ، وحول ميلاد ابنته ، وحول الخريف وما يوحي به ، وحول الموت وجلاله ، وما الى ذلك .

وللكاتب مواقف يعلنها ويلتزمها في كتابه . فمن رأيه أن الأديب ينبغي أن يحرص على أن تكون جميع آرائه متسقة غير متناقضة ، فلا يقول اليوم رأيا يعارضه في يوم غيره . وربما جازت مناقشة هذا الموقف ، والقول أن الجرأة الأدبية تحمد من الأديب أو المفكر اذا ما ارتأى اليوم رأيا ثم عدل عنه في غد الى رأي أصوب منه وأعدل . فالمازني مثلا كان شديد الحملة على صديقه الأديب الشاعر عبد الرحمن شكري ، ولكنه ندم على هذا في أخريات حياته بما أذاعه

على الناس ونشره ، قائلا ان اندفاع الشباب هو الذي كان رائده في الحملة على شكري ، وانه لا يخجل من اعلان أسفه على ذلك . ومصطفى صادق الرافعي الذي حمل على العقاد في «سفّوده» ، عاد في رسائله التالية يقرّ للعقاد بمكانته الأدبية الرفيعة . بل ان العقاد الذي حمل على شوقي الشاعر حملة عنيفة ، قال لي في مجلس خاص انه كان في حقيقة الأمر يحمل على أخلاق شوقي ، لا على شعره وأدبه . فعدول هؤلاء الكتّاب عن آراء سبق لهم ابداؤها متحاملين ، هو محمدة ينبغي أن يشاد بها وتذكر لهم .

كذلك يرى وحيد الدين أن الالتزام في الأدب ليس له الا مؤدى واحد هو أن يلتزم المفكر ما يراه من آراء يستوحيها من ضميره وأحاسيسه ونزاهته ، فلا يكون ملزما على قبول ما يخالف الضمير والأحاسيس والنزاهة . وهذا لعمري هو الرأي السديد في موضوع الالتزام . وان كان دعاته لا ينفكون يخلطون بين ما يلتزمه الأديب من وحي رغبته وسليقته وبين ما يملى عليه من خارج ذاته . وشتان بين الموقفين .

ويعالج وحيد الدين موضوعا آخر عن واقع الكاتب المعاصر ، فيرى أن الأدباء في الحياة المعقدة المعاصرة مضطرون الى مزاولة عمل يرتبط به رزقهم ويكفل لهم معاشهم ، حتى وان التهم كل وقتهم . فان بقيت لهم بعد ذلك فسحة من وقت أو عافية ، صرفوها في مشاغل الأدب . وهو يرى أن هذا الوضع يحول بين الكاتب وبين الانصراف الى الانتاج الحقيقي الأصيل الناضج انصرافا كليا . ولئن كان وحيد الدين قد عرض المشكلة ، فهو لم يشر برأي في حلّها .

ولكتاب وحيد الدين ذيل كتبه الدكتور صفاء خلوصي ، يقول فيه : «ان من يقرأ كتابات وحيد الدين يشعر بسعة اطلاعه وتنوع ثقافته وكثرة مطالعاته» ، ولو قال «انفعال عاطفته وجمال أسلوبه وسمو مثالياته» لكان أدق وأصوب.

أخبار الكتب

* صدرت ترجمة عربية للكتاب الذي وضعه أخيرا العلامة الدكتور فيليب حتّي بعنوان «صانعو التاريخ العربي» ، وقد قام بالترجمة الدكتور أنيس فريحة .

* صدر للأديب الكبير محمود تيمور مؤخرا كتابان جديدان ، أحدهما بعنوان «بين المطرقة والسندان» وهو يتناول أحاديث جرت بين المؤلف والصحف والاذاعات المختلفة ، والثاني بعنوان «الشخصيات العشرون» وهو عنوان جديد لكتابه السابق «ملامح وغضون» أضاف اليه تيمور عددا من الشخصيات الأدبية التي رسم صورا أدبية لها ، من أمثال لطفي السيد ، وطه حسين ، وعبدالعزيز فهمي ، وهيكل باشا ، والعقاد ، وأحمد أمين ، ومنصور فهمي ، وانطون الجميل ، وغيرهم.

* من كتب التراث التي صدرت أخيرا «معاني الشعر» للاشنانداني المتوفى سنة ٢٨٨هـ ، وقد حققه العلامة الراحل الأستاذ عز الدين التنوخي ، وأشرف على انجاز طبعه الأستاذ عبد الهادي هاشم ، و «المعلقات العشر» وقد حققها وقدم لها الأستاذ فوزي عطوي ، و «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن قيم الجوزية وقد صدر في أربعة أجزاء بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن الوكيل ، وتقديم الأستاذين عبدالوهاب عبداللطيف والسيد سابق ، و «الالماع في علوم الحديث» للقاضي عياض وقد حققه الأستاذ السيد أحمد صقر ، و «الذيل والتكملة» للمراكشي وقد ظهر منه جزءان بتحقيق الدكتور محمد بن شريفة .

* أصدر الأستاذ علي الجندي ، العميد الأسبق لكلية دار العلوم ، كتابا طريفا في أربعة أجزاء عنوانه «الجن بين الحقائق والأساطير» .

* من الدراسات الأدبية الجديدة ظهرت هذه الطائفة : «الأدب العربي الحديث : دوافعه وآفاقه» للدكتور علي شلق ، و «تاريخ الصحافة السورية» في جزءين للدكتور شمس الدين الرفاعي ، و «تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث» للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله ، و «فن الخطابة» للأستاذ ايليا حاوي .

ترجم الأستاذ عيسى الناعوري الدرامة الشعرية المسماة «مأساة الانسان» وهي للشاعر ايمري موداتش .

* ومن دواوين الشعر التي صدرت مؤخرا «رباعيات الحياة» للشاعر المهجري أنيس بقلة ، و «وراء السراب» للشاعر وصفي قرنفلي . كما صدر للشاعر المرحوم الراحل الأخطل الصغير بشارة الخوري كتابان من نثره هما «من بقايا الذاكرة» و «أحداث وأعلام» كذلك ظهر كتاب جمع الشعر الذي قيل في الأخطل بعنوان «قالوا في الأخطل» .

* في الأدب الروائي بفنونه المختلفة ظهرت الكتب التالية : «لمحات من المسرح العالمي» للسيدة جاذبية صدقي ، ورواية «أم سعد» للأستاذ غسان كنفاني ، ومجموعة أقاصيص بعنوان «عاشق الحياة» للأستاذ عبد السميع المصري ، و «الطلسم» مجموعة أقاصيص للأديب الجزائري محمد ديب وقد ترجمها عن الفرنسية الأستاذ جورج سالم ، و «خلفية الزقاق» مجموعة أقاصيص للأستاذ بديع بغدادي .

* من كتب التراجم والسير التي صدرت حديثا : «أبو نواس .. شاعر من عبقر» للدكتور زكي المحاسني ، و «أبو القاسم الآمدي» للأستاذ محمد علي أبو حمدة ، و «بدر شاكر السيّاب» للدكتور احسان عباس ، وطبعة ثانية من «فارس بني عبس» للأستاذ حسن عبد الله القرشي ، و «ليوناردو دافنشي» تأليف فرويد وترجمة الدكتور أحمد عكاشة ، و «محمود أحمد السيد رائد القصة الحديثة في العراق» للدكتور علي جواد الطاهر .

* من الكتب المنوعة التي صدرت مؤخرا هذه الطائفة : «العقليون والذوقيون أو النظر والعمل» للدكتور أحمد محمود صبحي ، و «دراسات في الاشراف الفني» للأستاذ سيّد حسن حسين ، و «العمارة» تأليف لامونت مور وترجمة الأستاذ محمد توفيق محمود ، و «الجغرافية الطبيعية» و «الجغرافية البشرية» وكلاهما للدكتور فيليب رفله والأستاذ أحمد سامي مصطفى ، و «طفولتي» للدكتورين أبو الفتوح رضوان وممدوح جبر ، و «أضواء على الدبلوماسية» للأستاذ أحمد عبد المجيد ، و «المعلم الحديث في الميكانيكا» للدكتورين أحمد حماد وفهمي ابراهيم ميخائيل .

كتب مهداة

حظيت مكتبة القافلة مؤخرا بهذه المجموعة من الكتب والمؤلفات القيمة :

* «التفسير القرآني للقرآن» في ٢٤ جزءا يضمها ١٢ مجلدا .
* «اعجاز القرآن» ويقع في مجلدين .
* «النبي محمد انسان الانسانية ونبي الأنبياء» .
* القضاء والقدر بين الفلسفة والدين» .
* «الله .. ذاتا وموضوعا» .
* «الله .. والانسان» .

وجميع هذه المؤلفات للعلامة الكبير الأستاذ عبد الكريم الخطيب .

* «لبنان .. بين مشرّق ومغرّب» للأستاذ الكبير محمد جميل بيهم .
* «محنة بيت المقدس» و «بن غوريون» وكلاهما للمؤرخ الاستاذ محمود العابدي ■

الأصداف البحرية
الودع

صدفة « ميوركس فينوس »

أصبحت هواية جمع الودع والأصداف في الآونة الأخيرة من الهوايات المحببة لدى كثير من الأشخاص . وتتميز هذه الهواية بأنها تطبع في نفوس ممارسيها رغبة ملحة في جمع أكبر عدد ممكن من العينات الودعية والصدفية ، وخصوصا النادرة منها والتي قد يصل ثمن الصدفة الواحدة منها أحيانا الى ما يوازي ٥٠٠٠ ريال .

وينتشر هواة جمع الودع والأصداف في أنحاء مختلفة من العالم ، ويشمل هؤلاء الرجال والنساء والأطفال على حد سواء . وتجذب هذه الهواية مزيدا من الهواة اليها كل عام ، ففي عام ١٩٥٦ بلغ عدد هواة جمع الودع والأصداف في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها نحو ١٠٠٠٠ هاو ، مقابل ما يقارب ١٠٠٠٠٠ هاو حاليا .

ومن المرجح أن تاريخ نشأة هذه الهواية ترجع الى عهد مغرق في القدم ، وهي موجودة حيث يوجد الانسان ، ولم تكن دوافعه الى ممارستها مجرد رغبة في تسلية أو متعة تلازم نوعا من الودع أو الأصداف دون آخر ، اذ تعددت هذه الدوافع واختلفت بين أمة وأخرى باختلاف حضارات الأمم وثقافاتها . فقد جمع الرومان والسكسونيون والهنود الاكوادوريون أصناف الودع لاعتقادهم بأنها تجلب الخصب والصيد . أما هنود أمريكا فكانوا يسمون الصدف «ومبم — Wampum» وكانوا يستعملونه كعملة يتداولونها فيما بينهم . وفي الشرق ، دأب الفينيقيون على استخراج الأصباغ من الأصداف . ويروى أن «أرسطو طاليس» قد تناول في مؤلفاته بحثا عن الصدف . ويدرس علماء الاحاثة في أيامنا هذه المستحاثات الصدفية بغية الاستدلال على مكامن جديدة للزيت وتقدير الأزمنة والعصور التي تكوّن خلالها . وفي الفلبين لا تزال الأصداف تقطّع الى صفائح رقيقة لصنع زجاج النوافذ منها ، كما لا تزال بعض مصانع الأزرار في الولايات المتحدة الأمريكية تعتمد على الصدف كخامات أساسية لصناعتها .

ويبدأ هواة جمع الودع والأصداف هوايتهم بجلب عينات من الودع الملوّن يلتقطونها من الشواطيء القريبة ، ثم لا يلبثون مع نمو هذه الهواية في نفوسهم أن يبدوا مزيدا من الاهتمام بالتعرف الى أنواع الأصداف وأسمائها وخصائصها ويركزون اهتمامهم على ما تعكسه هذه الاسماء من تطابق أو تباين مع الواقع . فهم مثلا لا يعلمون اذا كان «الحلزون البحري المرغوب فيه كثيرا

أحد هواة جمع الودع والأصداف وهو عاكف على مجموعته ينظف عيناتها ويصنفها ويقارنها بما هو مثبت في فهارس الودع والأصداف المصورة .

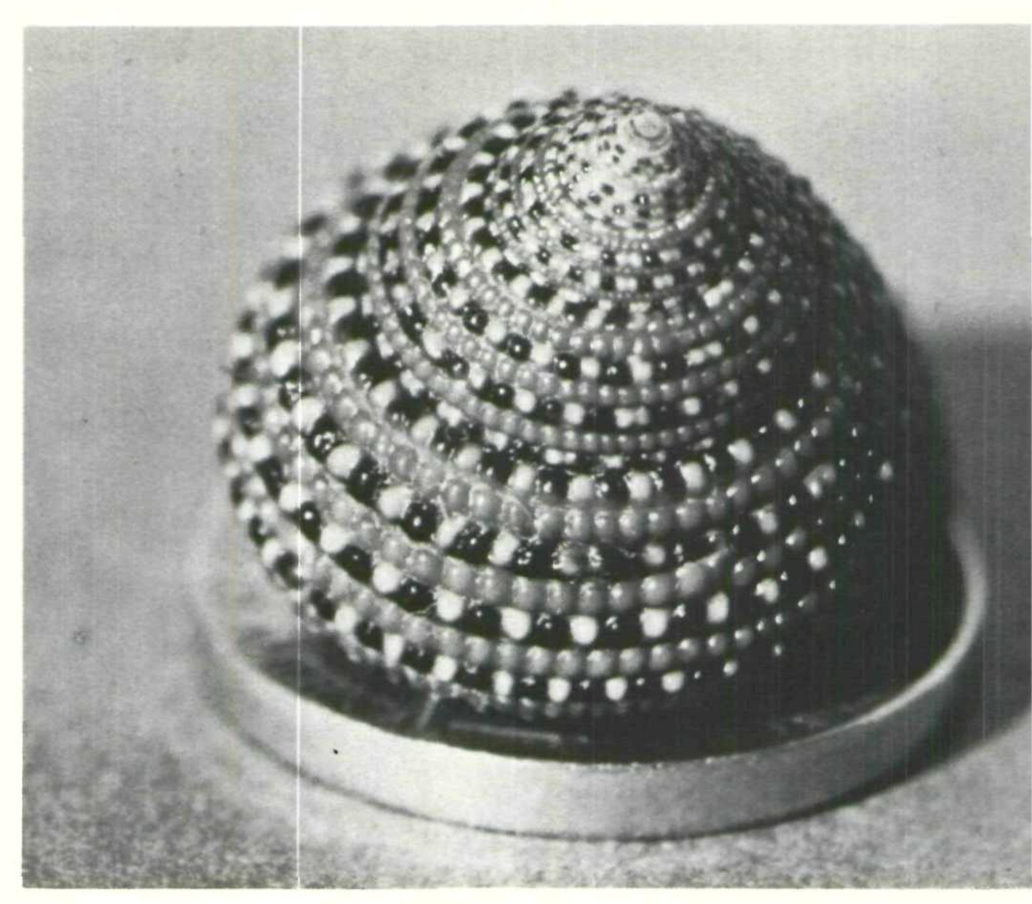


« Much — desired Volute » — وهذا اسم نوع من الحلزون — مرغوبا فيه حقا ، وينطبق القول نفسه على « الصدفة الخضراء ذات النقوش النسيجية— Tapestry Turbon » وصدفة « أذن البحر الجميلة - More Beautiful Abalone » كما أنهم يعجبون كيف يدعى صنف من الودع « الكوري الأرميني — Armenian Cowrie » في حين أنه يوجد في أستراليا ، أو لماذا يسمى صنف آخر « الكوري العربي الصغير — Little Arabian » في حين أن موطنه أواسط أمريكا .

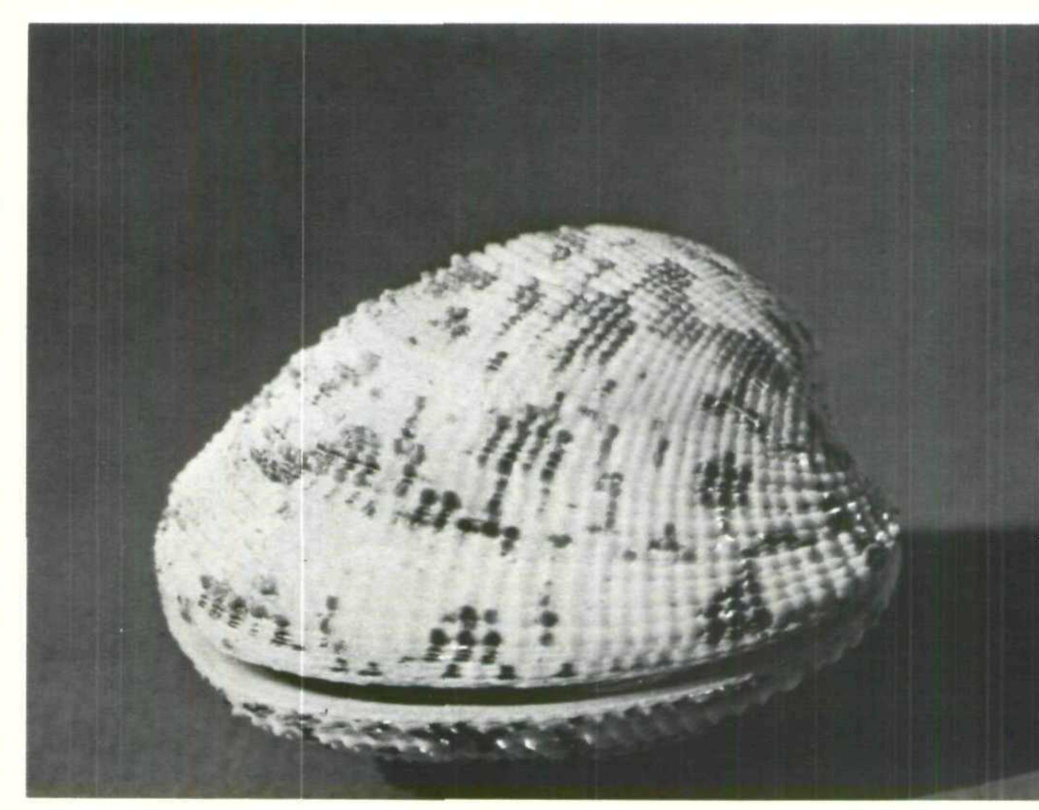
كذلك يعجب الهواة ان كان «الكوري الغادر — Clandestine Cowrie »قد أتى فعلا ما يستحق عليه صفة الغدر ، أو لماذا تلوث « الكوري الملوث - Sypraea Contominata » وهل تعكس أسماء مثل «الحلزون المرقط - Snakeskin Nerile » وصدفة « السن الدامي — Bleeding Tooth » و «أصداف فلوريدا الحلزونية المقاتلة - Florida Fighting Conch» و « الكوري ذو الرأس التنيني — Dragon's Head Cowrie » و « الكوري ذو الحربة — Snipes Bill » و « الكوري المخطط — Zigzag Cowrie » صفات حقيقية لمسمياتها .

وَاِذا ما رغب الهاوي في متابعة هوايته ، وغالبا ما يفعل ذلك ، عرف لماذا يحسن به أن يجمع الودع والصدفيات المخروطية التي تحمل في داخلها حيوانات حية ما أمكنه ذلك ، وأدرك أن هذه تفضل الأصداف والودع التي ماتت حيواناتها ، فالأولى تزهو بلونها المتألق وبريقها الجذاب ، ذلك لأن الحيوانات التي تعيش داخل هذه القواقع تفرز على أصدافها من الخارج طبقة رقيقة جدا تحول دون علوق الكائنات الحية البحرية الدقيقة بها ، وتحميها من الاحتكاك برمال البحر نتيجة لحركات الموج التي تتقاذفها في كل اتجاه ، فاذا مات الحيوان بطل مفعول هذه الطبقة الواقية وتخدشت الصدفة وعلق بها من الكائنات الحية الدقيقة ما يشوّه لونها ويبهت بريقها .

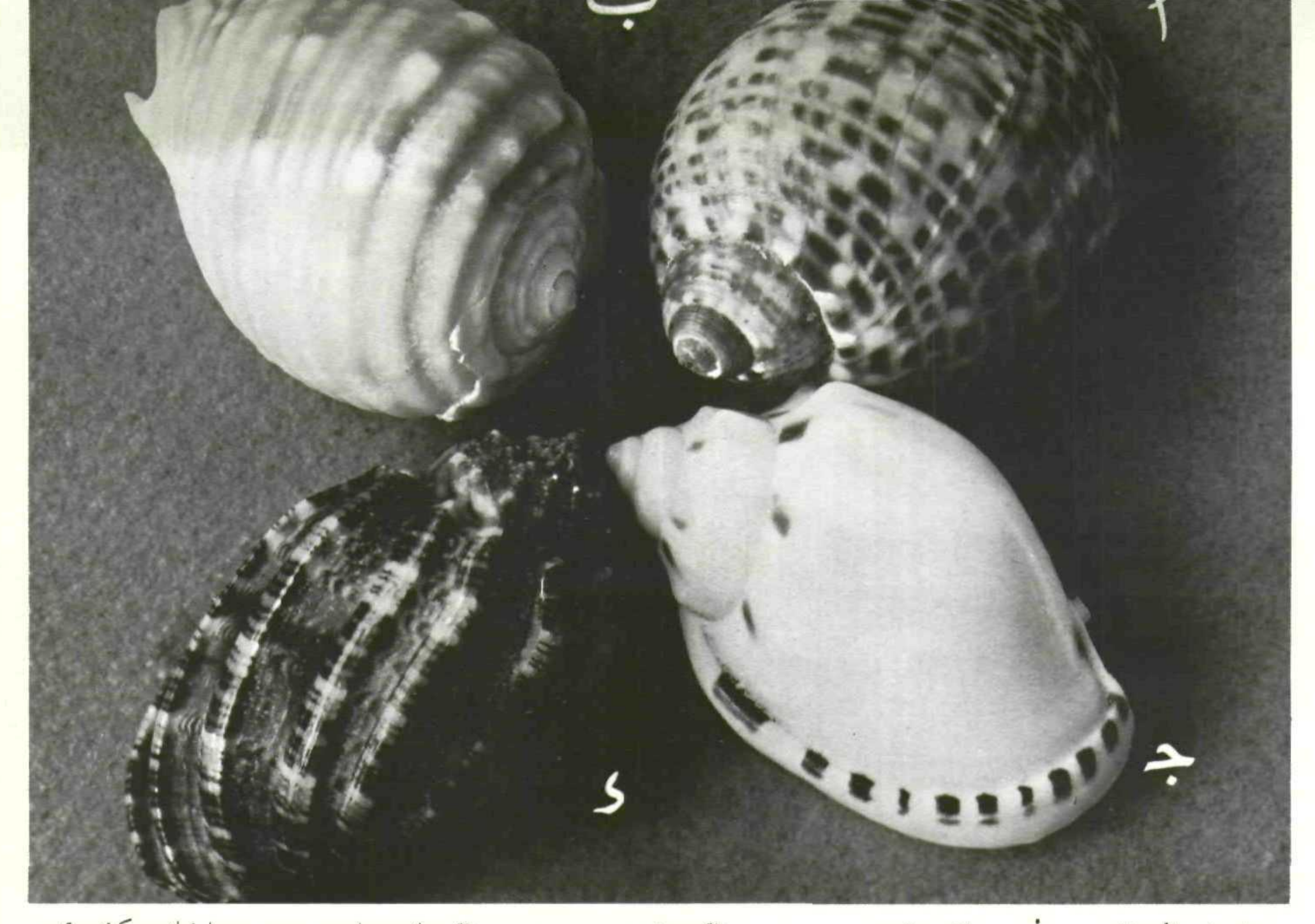
أما الحيوانات التي تعيش داخل « الصدفيات المخروطية — Cones » فانها تغطي أصدافها بطبقة جلدية تدعى « سمحاق—Periostracum » وتتفاوت من حيث سمكها بين صنف من هذه الصدفيات وآخر ، فهي رقيقة جدا في حالة «المحار المخروطي المغبر — Sand-dusted Cone »



صدفة الفراولة (كلانكلس فرونيس) .



صدفة « فينوس كلام » .



تمثل هذه الأصداف : أ – « بارترج تن » . ب – صدفة « بونت » . ج – صدفة «مانور هارب» د – باسفيك « كرننج تن »

سميكة مخملية الشكل ، بنية اللون في حالة « محار العذراء – Virgin Cone » . وهذه الطبقة الجلدية لا تقي الصدفة التي تعلوها فحسب ، بل تغطيها تماما الى درجة أنه يصعب على غير العين الحاذقة أن تميزها وهي ملقاة على رمال الشاطيء ، فاذا ما التقطت ، وكشطت طبقتها الواقية تفتحت عن صدفة بيضاء ناصعة ، ولذلك فان كثيرا من الهواة يفضلون أن تكون لديهم عينات تمثل الحالتين كلتيهما .

ويتحلى هواة جمع الودع والأصداف عادة بالأناة والصبر ، لأن تنظيف الأصداف وتلميعها والعناية بها أمور تستغرق جهدا كبيرا ووقتا طويلا لا يقصر عن الوقت الذي تستغرقه العناية بقطع الأثاث الأثرية أو التحف أو السيارات القديمة .. ولعل كثيرا من الهواة يضجرون عند هذا الحد من ممارستهم لهوايتهم ، وربما يفكر بعضهم بتركها ، ولكن أغلبهم يكون قد ألم بأصناف عديدة من الودع والأصداف وأصبح مندهشا بتنوعها ، مما يدفعه الى متابعة هوايته بغية استكمال مجموعته ، ما أمكنه ذلك .

واذا عرفنا مكانة اللافقريات من مملكة الحيوان ، أدركنا كنه هـذا التنوع المتسع في أصناف الودع والأصداف . ومن المعلوم أن الحيوانات الرخوة (الهلامية أو اللافقرية) تشمل عائلة بأسرها من العائلات الأربع عشرة التي تنقسم اليها مملكة الحيوان ، في حين تؤلف الفقريات كالثدييات والأسماك والطيور والزواحف والبرمائيات وأصناف عديدة غيرها عائلة أخرى من العائلات المذكورة . 'ذا ما ألممنا باتساع عائلة الفقريات وتنوعها وشمولها أصنافا تختلف في أشكالها وحجومها : كالفيل والعصفور والأفعى والسمكة وغيرها ، استطعنا أن ندرك ، بالمقارنة ، مدى اتساع عائلة اللافقريات وتنوعها وشمولها ، أيضا ، لأصناف تختلف شكلا وحجما . فمن « محار الحلزون الأرجواني – Violet Snail » الى المحار الذي يبدو على شكل عمة خضراء « Turban Shells » الى « الحلزون ذي الصدفة البيضاء – Marginella Aphanacwe » الى « محار اللزيق الكبير – Tridacna Gigas » الذي يبلغ طول بعض عيناته نحو ١٣٠ سنتمترا ووزنه نحو ٢٦ كيلوغراما ، الى « محار الحجل – Partridge Shell » وغير ذلك من الأصناف التي لا حصر لها . وتوجد اللافقريات في مختلف بقاع العالم ، في قيعان المحيطات أو قمم الجبال على حد سواء .

وهنالك ستة أصناف رئيسية من اللافقريات هي : اللافقريات البطنية الأرجل (الاحادية المصراع أو الحلزونيات) ، واللافقريات ذات المصراعين (اللزيق) ، والصدفيات النابية ، والصدفيات الدرعية (الكيتونات) ، واللافقريات الرأسية الأرجل (كالنوطل ، والرحّال ، والأخطبوط ، والصدفيات الاحادية النادرة التي تعيش في مياه البحار العميقة) .

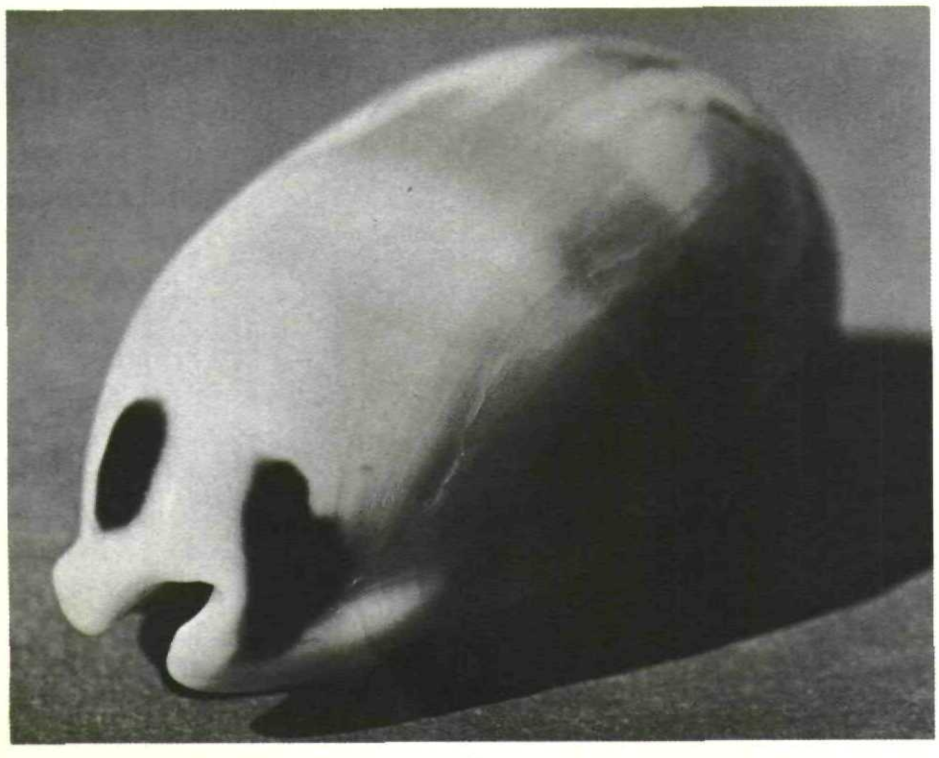
وتنقسم هذه الأصناف الى ما يربو على ١٠٠ فرع يزيد عدد عيناتها الموجودة حاليا على ١٠٠٠٠٠ صنف . وتشكل الصدفيات المخروطية نسبة ضئيلة منها ، اذ يتراوح عدد أصنافها بين ١٤٥ و ١٩٠ صنفا ، أما أصناف الودع فتتراوح بين ٤٠٠ و ٦٠٠ صنف .

تمثل الصدفة (أ) صدفة كاملة النمو من نوع « سيبا سبايدر » وتمثل الصدفة (ب) صدفة غير كاملة النمو من النوع ذاته .

جانب من صدفة « كاميو » المقببة .



أحد الصيادين يستعرض بعض الأصداف الحلزونية والمرجان التي جمعها بالقرب من شواطيء جدة .



الودعة المسماة (الكوري الجميل) .

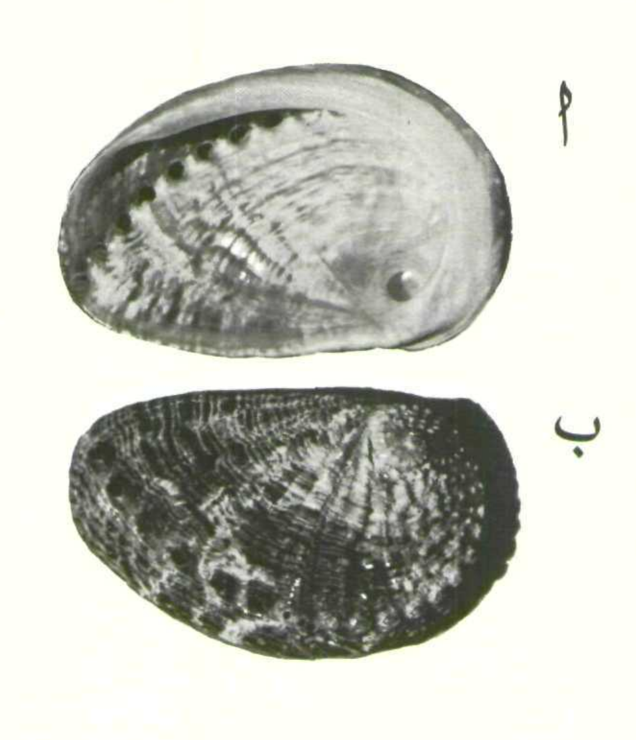
وينقسم عالم اللافقريات الى مناطق جغرافية مختلفة ، ونظـــرا لصعوبة تنقل الحيوانات اللافقرية من منطقة الى أخرى بسبب بعد الشقة واختلاف درجات الحرارة ، فان بعض هذه المناطق قد تحوي عينات لا تحويها المناطق الأخرى ، الأمر الذي يفتح مجالا واسعا أمام الهواة لكي يتعارفوا ويتبادلوا العينات بالمقايضة أو الشراء بغية استكمـــال مجموعاتهم . وتعيش في الشواطيء الغربية لقارة أمريكا الشمالية أصناف من الحيوانات الصدفية والودعية يتعذر عليها العيش في شواطئها الشرقية ، كما أن مياه منطقة « كاليفورنيا » الباردة تضم أصنافا تختلف عن الأصناف التي تضمها مياه منطقة « بنما » الدافئة .

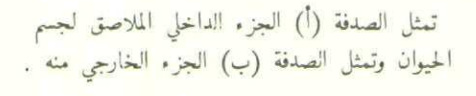
وتعتبر الشواطيء الشرقية للجزيرة العربية احدى ست مناطق في العالم تشتهر بوجود محارات « المليقرينا فلقارس – Melegrina Vulgaras » الغنية باللؤلؤ ، في حين أن شواطيء البحر الأحمر لا تحوي هذا الصنف من المحار . أما البحر الأبيض المتوسط وبحر اليابان وشواطيء جنوبي أفريقيا فيشتهر كل منها بأصناف خاصة .

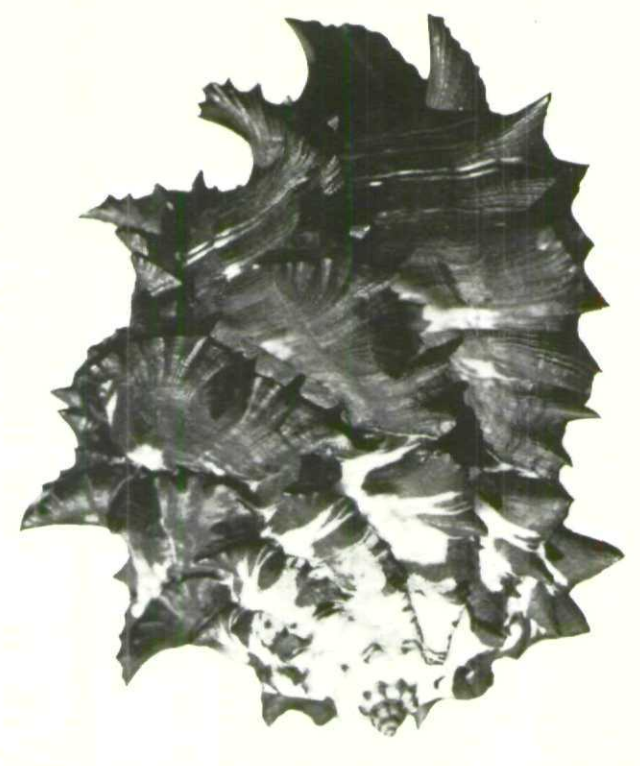
ولعل منطقة « المحيط الهندي – المحيط الهادي » هي أكبر هذه المناطق اطلاقا ، فهي تمتد من جزر هاواي الى استراليا ، ومن جزر الهند الشرقية الى الفلبين . وتعتبر شواطيء البحر الأحمر ذات أهمية خاصة بالنسبة للهواة لأنها تحصر في جيوبها الأرضية المغلفة عينات صدفية فريدة لا تكاد تكون موجودة في المناطق الأخرى .

وتتألف هذه المناطق من بيئات طبيعية مختلفة ، ولكل صنف من اللافقريات بيئته التي تناسب ظروف نموه ، « فاللافقريات ذات الأصداف الحلزونية – Conches » مثلا تكثر في المناطق الرملية من قيعان البحار وخاصة حيث يكون الماء ضحلا ، في حين تتكاثر « اللافقريات ذات الأصداف المخططة – Volutes » في مناطق المياه العميقة ، والودع في المناطق الصخرية ، وهكذا .

وبالاضافة الى هذا فان كثيرا من هذه الأصناف تتطلب بيئات خاصة ذات صفات معينة تختلف عن صفات بيئات كثيرة من الأصناف . ففي البحر الأحمر يكثر وجود « اللافقريات ذات الأصداف المبرومة – Subvlate Auger » الطويلة الحادة كأقلام الرصاص المبرية ، وخصوصا تحت الرمال في المناطق الفاصلة بين المياه الضحلة والمياه العميقة بينما يكثر وجود « اللافقريات ذات




تمثل الصدفة (أ) الجزء الداخلي الملاصق لجسم الحيوان وتمثل الصدفة (ب) الجزء الخارجي منه .


صدفة « ميوركس السوداء » ، الشائعة الوجود في خليج كاليفورنيا .

الأصداف المبرومة والمشرشرة «Crenulate Auger» في المناطق التي يبلغ عمق الماء فيها نحو ١٢ قدما . وتفضل بعض أصناف الودع الشائعة الوجود في البحر الأحمر «كالكوري المرقط Pantherina » و «كوري كرايانا – Qrayna » و « كوري كارنيولا – Carneola » و « الكوري النحيف – Gracilis » و « الكوري البني الضارب الى الخضرة – Isabella » . . تفضل مناطق الشعاب الداخلية حيث الماء ساكن ونقي وبارد نوعا ما . أما أصناف « كوري النمر – Lynx » و « كوري تاردس – Turdus » و «الكوري المخطط كالزرافة Camelopardalis » فتفضل مناطق المياه الدافئة القريبة جدا من الشاطيء . في حين يختبيء « الكوري الساكن – Stolid Cowrie » في رؤوس الشعاب المرجانية بدلا من أسفل الصخور .

أما الصدفيات المخروطية من أصناف « أرنياتس Arenatus » و « تسلياقس – Tessulatus » و « فيرقو – Virgo » و « سوماترنس – Sumatrenis » و « فكسيلم – Conus Vexillum » فتتكاثر على الرمال أو تحتها في المنطقة الواقعة بين الشاطيء والشعاب المرجانية في حين تختبيء « المخروطيات ذات النقوش النسيجية – Textile Cone » و « المخروطيات المخططة – Straite Cones » تحت صخور الشعاب . ومن الجدير بالذكر أن حيوانات الصنفين الأخيرين تخفي نفسها في الرمل ، وهي خطرة جدا ، اذ تستطيع أن تحقن سمها في جسم الانسان بواسطة شعيرات دقيقة جدا عند أنفها ، الأمر الذي قد يؤدي الى شلل الضحية .

ومعظم الأصداف بارع في اخفاء نفسه ، ويساعده على ذلك أحيانا تعذر الوصول الى أماكن وجوده . وبعض الأصداف شائع الوجود في منطقة دون غيرها من المناطق ، كصدفة « مجد البحار – Glory-of-the-seas » مثلا ، فهي نادرة الوجود اطلاقا . ومنذ اكتشاف هذا الصنف عام ١٧٧٧ للميلاد لم يعثر الهواة الا على ٧٠ صدفة منه .

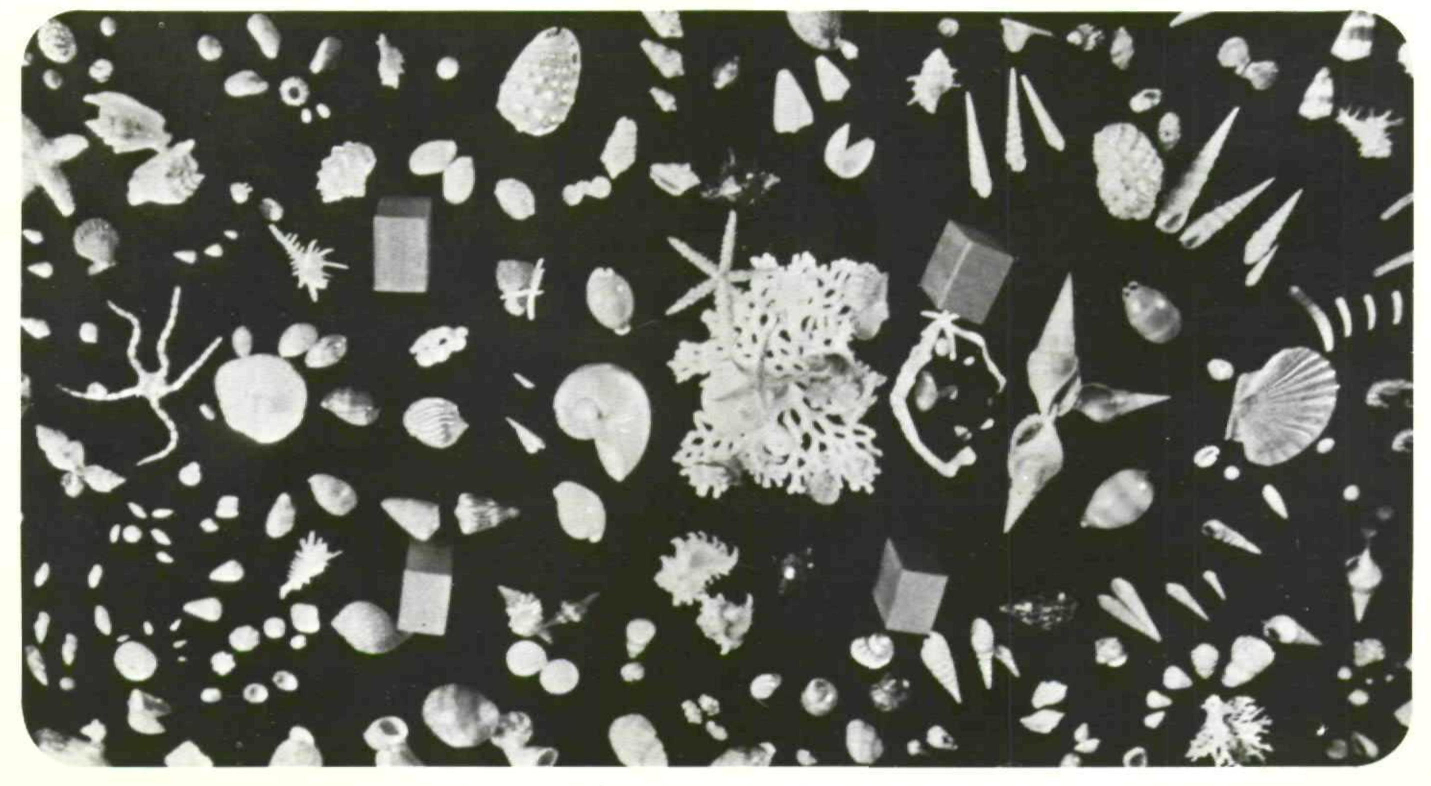
ويصل ثمن الصدفة الواحدة من صنف « مجد الهند – Glory-of-India » الى نحو ٦٠٠٠ ريال ، أما صنف « الكوري الكبير المنقط – Cypreas Guttala » فلم يعثر الا على ١٧ صدفة منه ، وقد بلغ ثمن الواحدة منها نحو ٣٨٠٠ ريال .

غير أن الهواة لا يعبأون كثيرا بهذه الأصناف ، على الرغم من أن فرصة العثور عليها تكاد تكون نادرة . وتشكل بعض الأصناف المتيسرة في مناطقهم تحديا لهم مما يدفعهم الى البحث والاستقصاء عن عينات منها ، فصدفة «الميوركس فينوس الثلاثية الأشواك Venus Comb murex » وصدفة « الظنّوب العربي – Arabian Tibia » مثلا تشكلان تحدياً كبيرا بالنسبة للهواة في منطقة الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، وخصوصا اذا أرادوا أن يعثروا على عينات منها تحمل حيوانات بحرية حية .

وخلال المراحل المتقدمة من ممارسة الهاوي لهوايته ، ينتقل من دراسة المحاريات (Conchology) الى دراسة علم الرخويات أو اللافقريات (Malacology) .. أو بالأحرى ، يجد الهاوي نفسه مهتما بمعرفة الحيوانات التي تعيش داخل الأصداف التي يجمعها ، لا بالأصداف وحدها .. وذلك ما يساعده على معرفة كيفية تشكل الأصداف وتلوّنها .

تضع الحيوانات الرخوية كميات كبيرة من البيض في الرمال أو على الصخور أو في مياه البحر فيفقس عن رخويات دقيقة جدا تسبح في المياه المحيطة بها ، ثم لا تلبث أن تسكن عن الحركة لتصنع أصدافها . وترقد بعض الرخويات على بيضها ، كما يفعل الدجاج ، الى أن يفقس . ويحتفظ بعضها به في جسمها الى أن يفقس عن الدقائق الرخوية التي أسلفنا ذكرها .

تمثل هاتان الصدفتان المخروطيتان : أ – الصدفة المبرومة . ب – الصدفة المبرومة والمشرشرة .



مجموعة متنوعة من الأصداف والودع البحرية التي يكثر وجودها في البحر الأحمر .



صدفة « كاميو » بألوانها الجميلة المتعددة .

تصوير : خليل أبو النصر

ويعتبر صنع هذه الدقائق لأصدافها ضربا من « الخيمياء – Alchemy » اذ تعمد الدقائق الرخوية الى المركبات المعدنية الذائبة في مياه البحر فتحولها بمساعدة غدة خاصة ، الى ضروب مختلفة من الألوان والتشكيلات التي تؤلف كل واحدة منها صدفة تشبه أصداف الصنف الذي ينتمي الحيوان اليه ، والذي يختلف بالطبع عن الأصناف الأخرى .

وكثيرا ما يلتقط الهواة أصدافا غير مكتملة النمو ، ولعل من الصعب تمييز ذلك ، اذ أن مثل هذه الأصداف تشبه أصدافا من أصناف أخرى مكتملة النمو كما هو الحال في الودع .. اذ كثيرا ما يخلط الهواة بين الودعة غير المكتملة النمو وبين « الصدفة الفقاعية الصغيرة – Bubble Shell » . ويستغرق صنع الحيوان لصدفته مدة تتراوح بين سنة وست سنوات ، وتكون حصيلة ذلك لوحة فنية رائعة البريق يعرف الكثير من الهواة أن التقاطها ربما يعني اضافة اسم جديد لصنف لم يكتشف بعد من أصناف الأصداف العديدة . بيد أن ذلك نادر الحدوث طبعا .. وان كان من المعلوم أن نواة مجموعة أصداف المتحف البريطاني كانت مجرد مجموعة تخص أحد الهواة العاديين وهو « السير هانز سلون » (١٦٦٠ – ١٧٥٣) ، كما أن أحد الهواة المبتدئين ، وهو « المستر أورفل ايقس » ، قدّم عام ١٩٥٦ احدى أصدافه الحلزونية الى « المستر وليم أولد » أحد علماء متحف العلوم الطبيعية الأمريكي ، وعند دراسة هذه الصدفة وجد أنها تمثل صنفا فريدا من نوعه لم يكتشف بعد ، وبذلك أصبح يعرف باسم « صدفة بل أولد الحلزونية – Bill Old's Conch » نسبة الى العالم الأمريكي المذكور .

ولعل مثل هذا الاكتشاف هو آخر ما يخطر في ذهن الهواة المبتدئين ، الا أن الكثيرين منهم يكتفون بنسيم الفجر المشبع بملوحة مياه البحر ، وصفاء لوحته الزرقاء ، ومتعة البحث الدائب عن معين لا ينضب من جمال خلاب يتمثلونه في ودعة أو صدفة ملقاة على الرمل أو بالقرب من حافة احدى الشعاب عند شواطىء البحار ■



نموذج لصَدَفة "تريتون" «Cymatium Pileare» ذات الشعيرات، وهي من الأصداف الجميلة الرائعة

